الباب الأول

دراسة وصفية تاريخية لسورة النساء

الفصل الأول

أسباب النزول

بيـان ودراسـة:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٢].

نزلـت هاتـان الآيتان فى السـنة الأولى للهجرة فيمن كان يرث زوجـة أبيه إذا مات، أو يحبسها لينتفع بمالها.

فقد أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى قال: كان الرجل إذا توفى عن امرأة، كان ابنـه أحـق بها أن ينكحها إن شـاء إن لم تكن أمّه، أو يُنكحها من شـاء؛ فلما مات أبـو قيس بن الأسـلت، قام ابنه محصّن فورث نكاح امرأته، ولم يورِّثها من المال شـيئا؛ فأتت النبى ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ارجعى لعل الله ينزل فيك شـيئاً، فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٢٢]، ونزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٩][1].

يقـوِّى ذلك – فى نظـرى – رواية البخارى[2] وأبو داود والنسـائى التى ذكرتْ نفس السبب لكنها لم تذكر اسم الرجل الذى مات وورث ابنه نكاح امرأته.

وقد ذكر الطبرى: أن وفاة أبى قيس بن الأسـلت كانت فى السـنة الأولى من الهجرة فقال: «وزعم الواقدى أن فى هذه السنة – أعنى السنة الأولى من الهجرة – جاء أبو قيس بن الأسلت رسول الله ﷺ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فقال: ما أحسن ما تدعو إليه،

---

(١) لباب النقول للسيوطى/٦٠.

(٢) صحيح البخارى ٦/ ٥٥.

انظـر فى أمـرى ثم أعود إليك، فلقيه عبد الله بن أبىّ فقال: كرهت والله حرب الخزرج، فقال أبو قيس: لا أسلم سنة، فمات فى ذى القعدة من السنة الأولى للهجرة)[1].

قـول الله تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴿٧٧﴾﴾ [سـورة النسـاء - الآية ٧٧] نزلت فى السـنة الثانية من الهجرة، فيمن تمنوا الجهاد فى مكة ثم خافوه فى المدينة.

فقد أخرج النسـائى والحاكم عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتَوا النبى ﷺ، فقالوا: يا نبى الله، كنا فى عزٍّ ونحن مشـركون. فلما آمَنَّا صرنا أذلة. قال: إنى أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم. فلما حوَّله الله إلى المدينة، أمره بالقتال، فكفّوا فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الآية[2].

وفى رأيى أن رواية النسائى والحاكم عن ابن عباس، فيها نظر؛ إذ تجعل عبدالرحمن ابن عوف يخشى الأعداء، أشد من خشية الله، فكيف به وهو من العشرة المبشرين بالجنة؟ وسـياق الآية يتمشى مع قوم لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم، أو مع آخرين يظهرون الإسلام ويبطنـون خلافه. وكيفمـا كان الأمر، فإن القتال قد فُرض على رسـول الله ﷺ فى العام الثانى الهجرى بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴿٢١٦﴾﴾ [سـورة البقرة - الآيـة ٢١٦] وكان الإذن به من العـام الأول بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج - الآية ٣٩]، ولكن آية سورة النساء تتحدث عن فرض القتال، لا الإذن به فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾.

فهذه الآية مما نزل من سورة النسـاء فى العام الثانى الهجرى.

قـول الله تعـالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٩٥].

نزلت هذه الآية فى شأن الخارجين إلى بدر والمتخلفين عنها[3].

فعـن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال النبى ﷺ: ادعوا

---

(١) تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ٢ / ٤٠٦.
= أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير. ٥ / ٢٥٦ - ٢٥٧ .
= الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٨ / ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) لباب النقول للسيوطى ٧٠.

(٣) صحيح البخارى ٦/٦٠. و لباب النقول فى أسباب النزول / ٧٤.

فلانـا، فجاءه ومعه الدواة واللوح، أو الكتـف. فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وخلف النبى ﷺ ابن مكتوم، فقال: يا رسول الله أنا ضرير. فنزلت مكانها: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿٩٥﴾﴾. وقد أخبر ابن عباس لا يستوى القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إلى بدر. ومن المعروف أن غزوة بدر كانت فى رمضان من السنة الثانية للهجرة. وعليه فإن هذه الآية مما نزل من سورة النساء فى ذلك العام.

قـول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٩٧].

نزلت فيمن كانوا يكثرون سواد المشركين على المسلمين وهم مسلمون وذلك فى غزوة بدر من العام الثانى الهجرى.

فقد روى البخارى عن ابن عباس، أن أناسـاً من المسـلمين كانوا مع المشـركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ فيأتى السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[1].

وقد أورد ابن هشـام – فى سـيرته – ذلك عند غزوة بدر بقوله: ذكر الفتية الذين أنزل الله فيهم إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فقال عنهم: وكان الفتية الذين قتلوا ببدر فنزل فيهم من القرآن – فيما ذُكر لنا – وذكر ابن هشام الآيات من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى قوله ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ ثم ذكر أسماء هؤلاء الفتية[2].

قوله – تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٣٤].

نزلت هذه الآية فى السنة الثالثة للهجرة، فى امرأة نشزت على زوجها فلطمها فطلب أبوها القصاص.

قـال مقاتل: هذه الآية نزلت فى سـعد بن الرُّبيِّع، وكان مـن النقباء، وامرأته حبيبة بنت يزيد بن أبى هريرة، وهما من الأنصار. وذلك أنها نشـزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ وقال: أفرشـته كريمتى فلطمها فقال النبى ﷺ: لتقتصّ من زوجها،

(١) صحيح البخارى ٦/٦٠–٦١. ولباب النقول / ٧٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٨٣.

وانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال النبى ﷺ: ارجعوا هذا جبريل - عليه السلام - أتانى وأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: أردنا أمراً وأراد الله أمرا والذى أراد الله خير. ورفع القصاص[1].

وقد ذكر ابن هشام فى السيرة أن سعد بن الربيع قُتِل شهيداً فى غزوة أحد فى السنة الثالثة للهجرة[2].

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾ سورة النساء - الآية: ٧]. نزلت فيمن كانوا لا يُورِّثون البنات، ولا الصغار.

فعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورِّثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا؛ فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت، وترك ابنتين، وابنا صغيراً، فجاء ابنا عمه: خالد وعرفطة وهما عصبة، فأخذا ميراثه كله، فاتت امرأته رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك فقال: ما أدرى ما أقول فنزلت ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾[3].

وأوس بن ثابت أخو حسان بن ثابت، استُشهد فى غزوة أحد سنة ثلاث من الهجرة - كما ذكر ابن هشام فى سيرته[4] وابن الأثير[5].

مما سبق يتبين أن هذه الآية مما نزل من سورة النساء فى العام الثالث الهجرى.

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [سورة النساء - الآية ١١] نزلت فى ابنتى سعد بن الربيع فى العام الثالث الهجرى.

فعن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان إلا ولهما مال. فقال: يقضى الله فى ذلك، فنزل آية الميراث، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: اعط ابنتى سعد الثلثين وأعط أمهما الثمن، وما بقى فهو لك[6].

---

(١) تفسير الطبرى ٨ / ٢٩١. وأسباب النزول / ١٠٠

(٢) انظر شهداء أحد فى سيرة ابن هشام ٣ / ٧٩ .

(٣) السيوطى ، لباب النقول / ٥٨ .

(٤) سيرة النبى لابن هشام ٣ / ٧٨ .

(٥) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ١ / ١٦٥ - ١٦٦ .

(٦) حديث صحيح. سنن الترمذى ٢٠٩٢.

وعن جابر – رضى الله عنه – قال عادنى النبى ﷺ وأبو بكر فى بنى سَلَمَة ماشيين، فوجدنى النبى لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رشّ فأفقت، فقلت: ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله؟ فنزلت ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾[1].

ومن المرجح – على كل حال – أن يكون نزول قوله تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ فى قصة سعد بن الربيع الذى قتل فى أحد – كما تقدم – كما يقول الحافظ فى الفتح: يحتمل أن يكون نزول أولها (آية المواريث) فى قصة البنتين وآخرها ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ فى قصة جابر، ويكون مراد جابر فنزلت ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ أى ذكر: الكلالة المتصل بهذه الآية[2]؛ ذلك لأن جابرا– رضى الله عنه – لم يكن له إلا أخوات ولم يكن له بنات. كما قال ابن كثير: والظاهر أن حديث جابر إنما نزلت بشأنه الآية الأخيرة من هذه السورة؛ فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما يورث كلاله. وحديث جابر الخاص بامرأة سعد بن الربيع أشبه بنزول هذه الآية[3].

ولما كان سعد بن الربيع قد استشهد فى غزوة أحد – كما تقدم – فإن هذه الآية من أحداث العام الثالث للهجرة.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٨٨]. نزلت هذه الآية فيمن رجع من المنافقين من غزوة أحد.

فقد روى الشيخان عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتان، فرقة تقول بقتلهم، وفرقة أخرى تقول لا. فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾[4].

وروايات متعددة حول نزول الآية الكريمة، ولكنى أرجّح منها جميعا رواية الشيخين العظيمين، البخارى ومسلم لصحة ما جاء عن طريقهما. وبهذا تكون الآية الكريمة. نزلت فى شأن المنافقين الذين رجعوا عن القتال فى غزوة أحد، والتى كانت فى شعبان سنة ثلاث للهجرة. وقال الترمذى عن هذا الحديث : حديث حسن صحيح[5].

---

(١) صحيح البخارى ٦/٥٤ – ٥٥

(٢) فتح البارى لابن حجر ٩/ ٣١١.

(٣) عمدة التفسير للحافظ ابن كثير ٣/ ١١٧/ ١١٨

(٤) صحيح البخارى ٦/٥٩ . ولباب النقول للسيوطى / ٧٠ .

(٥) سنن الترمذى ٥ / ٢٣٩ .

قولـه تعـالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴿٩٠﴾﴾ [سـورة النسـاء – الآية ٩٠].

نزلت هذه الآية بعد أن ظهر النبى ﷺ على أهل بدر وأُحد وأسلم من حولهم.

فقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسـن أن سـراقة بن مالك المدلجى حدثهم قال: لما ظهر النبى ﷺ على أهل بدر وأحد، وأسـلم من حولهم. قال سـراقة: بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى؛ بنى مدلج، فأتيته فقلت: أنشـدك النعمة بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسـلم قومك أسـلموا، ودخلوا فى الإسـلام، وإن لم يسلموا لم يحسـن تغليب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال: اذهب معه فافعل ما يريد، فصالحهم خالد على ألا يُعينوا على رسـول الله ﷺ، وإن أسـلمت قريش أسلموا معهم وأنزل الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم[1].

ولما كان ذلك بعد غزوة أحد، فإن هذه الآية تكون مما نزل فى العام الثالث للهجرة.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة النسـاء – الآية ١٠١]. وقوله تعالى ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة النسـاء – الآية: ١٠٢]. نزلـت الآية الأولى فى صلاة القصـر، والثانية فى صلاة الخوف وكيفية أدائها.

فقد أخرج ابن جرير عن علىّ قال: سـأل قوم من بنى النجار رسـول الله ﷺ فقالوا؛ يا رسـول الله: إنا نضرب فى الأرض فكيف نصلى؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ثـم انقطع الوحى، فلمـا كان بعد ذلك بحَوْل غزا النبى ﷺ، فصلى الظهر فقال المشـركون؛ لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهـم؟ فقال قائل منهـم: إن لهم أخرى مثلها فى إثرها. فأنزل الله بين الصلاتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ونزلت صلاة الخوف[2].

وقد ذكر أصحاب السير[3] – أن صلاة الخوف نزلت على رسول الله ﷺ فى غزوة (ذات الرقاع) سنة أربع من الهجرة، فقد روى ابن جرير عن أبى هريرة قال: خرجنا مع رسول

(١) لباب النقول للسيوطى / ٧١ – ٧٢ .

(٢) تفسير الطبرى ٩ / ١٢٦ ، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٤، ولباب النقول / ٧٧ .

(٣) سيرة النبى لابن هشام ٣ / ٢١٤، وتاريخ الطبرى ٢ / ٥٥٦ .

الله ﷺ إلى نجد حتى إذا كنا بذات الرقاع من نخل؛ لقى جمعا من غطفان، فلم يكن بيهمنا قتال، إلا أن الناس قد خافوا، فنزلت صلاة الخوف؛ فصدع أصحابه صدعين؛ فقامت طائفة مواجهة للعدو، وقامت طائفة خلف رسول الله ﷺ ...)[1] وذكر صلاة الخوف. وقد جعل ابن جرير غزوة ذات الرقاع فى تاريخه من أحداث العام الرابع الهجرى، وكذلك ابن هشام فى سيرته.

وعليه فإن هذه الآيات مما نزل من سورة النساء فى العام الرابع الهجرى .

ولكنهم لم يفرقوا بين صلاتى الخوف والقصر - كما فى حديث أبى هريرة المتقدم - فهو يقول: (... إلا أن الناس قد خافوهم ونزلت صلاة الخوف) ثم شرع فى بيان كيفية أدائها.

وسياق الحديث على الذى رواه ابن جرير ، يُفهم منه أن ثمة صلاتين: صلاة القصر، وصلاة الخوف، وأن الفارق الزمنى بينهما سنة كاملة. فقد سأل قوم من بنى النجار أو من التجار. كما ذُكر الخلاف فى تفسيرالطبرى[2] النبىَّ ﷺ أنهم يضربون فى الأرض، فكيف يصلون؟ فأنزل الله ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

وتأتى بعد ذلك غزوة ذات الرقاع سنة أربع من الهجرة وتنزل فيها صلاة الخوف وكيفيتها بقوله تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ الآية[3].

يتبين لنا - مما سبق - أن صلاة القصر كانت سنة ثلاث من الهجرة، و أن صلاة الخوف كانت سنة أربع ، فى غزوة (ذات الرقاع) والآيتان الخاصتان بهما من أحداث هذين العامين.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٠٥].

أخرج ابن سعد فى طبقاته بسنده عن محمود بن لبيد قال: عدا بشير بن الحرث على عِلْية رفاعة بن زيد؛ عمِّ قتادة بن النعمان فنقبها من ظهرها، وأخذ طعاما له ودِرعيه بأداتهما، فأتى قتادةُ النبىَّ ﷺ ، فأخبره بذلك، فدعا بشيراً فسأله فأنكر، ورمى بذلك

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٥٥٦.

(٢) تاريخ الطبرى، أحداث العام الرابع الهجرى ٢ / ٥٥٦ .

(٣) تاريخ الطبرى، أحداث العام الرابع الهجرى ٢ / ٥٥٦ .

لبيد بن سهل؛ رجلا من أهل الدار ذا حسب ونسب، فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد - ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة النساء - الآية: ١٠٥]؛ فلما نزل القرآن فى بشير، وعثر عليه هرب إلى مكة مرتداً، فنزل على سلافة بنت سعد، فجعل يقع فى النبى ﷺ، وفى المسلمين فنزل فيه ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴿١١٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية: ١١٥]. وهجاه حسان بن ثابت حتى رجع، وكان ذلك فى شهر ربيع سنة أربع من الهجرة[1].

قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية: ٥١] إلى قوله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية: ٥٥].

هذه الآيات مما نزل على رسول الله ﷺ فى السنة الخامسة من الهجرة فى شأن اليهود الذين حزَّبوا الأحزاب حتى كانت غزوة الخندق.

فقد قال ابن جرير: إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحُيَىّ بن أخطب النضرى، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى، وهوزة بن قيس الوائلى، وأبو عمّار الوائلى، فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل، هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى ضرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفَدِينُنا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. قال: فهم الذين أنزل الله - عز وجل - فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية: ٥١] إلى قوله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٥٥].

وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه[2] وابن هشام فى سيرته[3] أن غزوة الخندق كانت فى السنة الخامسة للهجرة.

---

(١) لباب النقول للسيوطى/ ٧٨

(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٥٦٥.

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٢٩.

قول الله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية: ٢٣]. نزلت فى محمد ﷺ حين نكح امرأة زيد بن حارثة.

فقد أخرج ابن جرير عن ابن جُريج قال: قلت لعطاء: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾. قال: كنا نتحدث أنها نزلت فى محمد ﷺ حين نكح امرأة زيد بن حارثة، وقال المشركون فى ذلك فنزلت «وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم»[1].

وقد ذكر ابن جرير أن زواج الرسول الكريم بزينب بنت جحش زوجة زيد بن الحارثة، كان فى السنة الخامسة للهجرة، وتزوجها النبى ﷺ بأمر من ربه عز وجل لإبطال عادة التبنى آنذاك[2].

قول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية: ٤٣]. نزلت فى السنة السادسة للهجرة فى إحدى أسفار رسول الله ﷺ بسبب فَقْد عِقْد عائشة رضى الله عنها.

فعن عائشة أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش، انقطع عقد لى، فقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى قد نام، فقال: أحْبَسْتِ رسول الله ﷺ والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت: فعاتبنى أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، فجعل يطعن بيده فى خاصرتى، فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذى، فقام رسول الله حتى أصبح على غير ماء. فأنزل الله - تعالى - أية التيمم (فتيمموا)، فقال أسيد بن حضير - وهو أحد النقباء - ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر، قالت عائشة: فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته[3].

الحديث رواه البخارى[4]، عن إسماعيل بن أبى أويس. ورواه مسلم عن يحيى بن مَعين

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول / ٦١.

(٢) تاريخ الطبرى أحداث العام الخامس الهجرى ٢ / ٥٦٢ وما بعدها.

(٣) تاريخ الطبرى (أخبار العام الرابع الهجرى) ٢ / ٥٥٦ .

(٤) صحيح البخارى (باب التفسير ٦ / ٦٣)

كلاهما عن مالك، وأورده الواحدى فى أسباب النزول[1] مرويا عن البخارى.

ومن العجيب أن الإمام البخارى بوَّب فى كتاب التفسير لسورة النساء على الآية التى ذكر فيها التيمم، وأدخل حديث عائشة فقال: وإن كنتم مرضى أو على سفر، وفى سورة المائدة قال: (فلم تجدوا ماء واستدل بحديث عائشة أيضاً وقال: إنه يحتمل أن الآيتين لنفس السبب، ولكن العلماء أطلقوا على آية المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ۝٦﴾ آية الوضوء وأطلقوا على آية النساء آية التيمم[2].

وكيفما كان الأمر فإن حديث عائشة هذا خاص بآية التيمم التى فى سورة النساء لأن آية المائدة تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ واتفق المفسرون بالمدينة على أن المراد بقوله تعالى: (إذا قمتم إلى الصلاة) يعنى من النوم.[3] وأما آية النساء، فإنها سفرية كما يفهم من حديث عائشة.

والحديث الذى رواه البخارى عن عائشة[4]، يعنى نزول حكم التيمم لا غير؛ مما يدل على أنه لم يكن معهوداً من قبل.

وأما آية المائدة فإنها تتحدث عن الوضوء، ثم ذكر البديل له فى حالة عدم وجود الماء. وفى تصورى أن آية النساء تسبق آية المائدة؛ إذ كان الوضوء معروفا منذ العهد المكى، وقت نزول فرض الصلاة ولكنه - كما يقول ابن العربى - لم يكن مفروضا أو متلوّا، وروروده فى سورة المائدة أول تلاوة له[5].

أما ذكر التيمم فى سورة المائدة، فيبدو أنه كان معروفا من قبل بنزول آية النساء، ثم جاء تعقيبا للوضوء بديلاً له وآية النساء لم يذكر فيها الوضوء.

ثم إن الطبرانى روى الحديث عن طريق عباد بن عبيد الله بن الزبير عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدى ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، أخرجُت مع رسول الله ﷺ فى غزوة أخرى فسقط أيضا عقدى، حتى حُبِسَ الناس على التماسه، فقال لى أبو بكر: فى كل سفر تكونين عناء، وبلاء على الناس فأنزل الله الرخصة فى التيمم[6].

---

(١) أسباب النزول للواحدى / ١٠٢ .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول ٨٥ . وأحكام القرآن لابن العربى ١ / ٤٤٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربى ١ / ٤٤٢ .

(٤) صحيح البخارى ٥٧/٦

(٥) أحكام القرآن ٤٤٢/١.

(٦) لباب النقول للسيوطى / ٨٥.

مما سبق يفهم أن السفر الذى نزل فيه التيمم كان بعد حديث الإفك، وكان حديث الإفك فى السنة السادسة من الهجرة فى غزوة (بنى المصطلق)[1]. والمعروف أن الرسول لم يخرج بعد هذه الغزوة إلا لصلح الحديبية؛ فبعد غزوة بنى المصطلق أقام الرسول ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوال، وخرج فى ذى القعدة معتمراً. وفى سَير الرسول وأصحابه إلى المدينة يذكر المؤرخون وأصحاب السير أنهم التمسوا الماء؛ فعندما أمر الرسول الناس بالنزول، نزلوا على ثمد[2] قليل الماء إنما يتبرضه الناس تبرضا[3] فلم يلبسه الناس أن نزحوه.

يتبين لنا مما سبق أن الماء كان شحيحا بينهم وهذا يؤيد حديث البخارى فى سبب نزول هذه الآية (وليسوا على ماء وليس معهم ماء) وتكون هذه الآية مما نزل فى العام السادس الهجرى.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٥٨].

نزلت فى عثمان بن طلحة الحجبى من بنى عبد الدار، كان سادن الكعبة، فلما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت، وصعد السطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلبه منه فأبى، وأخذ علىّ منه المفتاح، وفتح الباب، فدخل رسول الله ﷺ البيت، وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع به بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان، ويعتذر إليه، ففعل ذلك علىّ. فقال له عثمان: يا على أكرهتَ وآذيتَ ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله فى شأنك، وقرأ عليه هذه الآية، فقال عثمان أشهد أن محمدا رسول الله، وأسلم. وجاء جبريل عليه السلام فقال: ما دام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان وهو اليوم فى أيديهم[4].

وعن ابن جريج قال: وقال عمر بن الخطاب: لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية – فداه أبى وأمى – ما سمعته يتلوها قبل ذلك[5].

وظاهر هذه الرواية أن الآية نزلت فى جوف الكعبة فى العام الثامن الهجرى إلا أن فتح

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ٣ / ٣٤١.

(٢) الثمد: موضع يجتمع فيه ماء السماء

(٣) يتبرضه: أى يغرفه

(٤) أسباب النزول للواحدى/ ١٠٤.

(٥) لباب النقول للسيوطى ٦٦.

مكة كان فى رمضان من تلك السنة.

قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴿٩٤﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية: ٩٤].

روى البخارى والترمذى والحاكم وغيره عن ابن عباس قال: مرَّ رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى ﷺ وهو يسوق غنما له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوَّذ منا، فعمدوا عليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبى ﷺ فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ ﴾ الآية[1].

واسم القاتل مُحَلِّم بن جثامة الليثى، واسم المقتول عامر بن الأضبط الأشجعى، وقائد السرية التى وقع فيهاهذا الحدث عبد الله بن أبى حدرد.

فلقد رُوى أنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضَم؛ فخرجت فى نفر من المسلمين، فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعى، ومحلم بن جثامة بن قيس الليثى، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له، معه مُتَيِّع، ووضب من لبن، فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة الليثى لشىء كان بينه وبينه فقتله، وأخذ بعيره ومتيَعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾.

قال ابن جرير: وقال الواقدى: إنما كان رسول الله ﷺ بعث هذه السرية، حين خرج لفتح مكة فى شهر رمضان، وكنا ثمانية أنفار[2]. والمعروف أن فتح مكة كان فى السنة الثامنة من الهجرة كما سبق ذكره.

قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية: ٢٤].

نزلت فى شأن سبايا أوطاس فى العام الثامن الهجرى.

فقد روى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال: أصبنا سبايا من سبى أوطاس، لهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبى ﷺ - فنزلت: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ الآية، يقول: إلا ما أفاء الله

---

(١) صحيح البخارى ٦/٥٩.

(٢) تاريخ الطبرى ٣/ ٣٦

عليكم. فاستحللنا بها فروجهن[1].

وأوطاس؛ وادٍ فى ديار هوازن، كانت فيه وقعة حنين للنبى ﷺ ببنى هوازن، ويومئذ قال النبى ﷺ: حَمِيَ الوطيس. وقال ابن شبيب: الغَوْرُ من ذات عرق إلى أوطاس، وأوطاس على نفس الطريق. ونجد فى حد أوطاس إلى القريتين[2].

وقد ذكر ابن هشام فى سيرته، وابن جرير فى تاريخه[3] أن غزوة حنين كانت بعد فتح مكة مباشرة. ومن هذا يُفهم أنها كانت فى السنة الثامنة للهجرة.

قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية: ٩٣].

نزلت فى أخى مقيس بن صبابة الذى قَبِل دية أخيه ثم وثب على قاتل أخيه فقتله يوم الفتح.

فقد أخرج ابن جرير من طريق ابن جُرَيْج عن عكرمة أن رجلاً من الأنصار قتل أخا مقيس بن صبابة، فأعطاه النبى ﷺ الدِّية فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله. فقال النبى ﷺ: لا أؤمنه فى حل ولا حرم، فقُتل يوم الفتح. قال ابن جريج: وفيه نزلت هذه الآية «ومن يقتل مؤمنا متعمدا»[4]. وظاهر الرواية أن ذلك كان فى فتح مكة سنة ثمان للهجرة.

قول الله تعالى ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴿٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية: ٣].

روى البخارى أن عروة بن الزبير سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴿٣﴾﴾ فقالت: يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليّها تُشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يُقسط فى صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن فى الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن[5].

---

(١) تفسير الطبرى ٨/ ١٥٣ - ١٥٤ وانظر لباب النقول ٦١.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى ١/ ٢٨١.

(٣) سيرة ابن هشام٤/٦٥ وانظر تاريخ الطبرى ٣/ ٧٠.

(٤) أسباب النزول للواحدى ١١٤ - ١١٥.

(٥) صحيح البخارى ٦/ ٥٣..

قال الأستاذ محمد حسين هيكل: إن هذه الآية نزلت فى أخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان النبى ﷺ قد بنى بأزواجه جميعا، ونزلت لتحديد عدد الزوجات بأربع. وقد كان إلى حين نزولها لا حدَّ له[1].

قول الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴿١٧٦﴾﴾ من الآية ١٧٦.

نزلت فى جابر بن عبد الله، لبيان ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، وهى آخر ما نزل من آيات الأحكام، وقيل: بل هى آخر ما نزل من القرآن عموماً.

فقد روى النسائى من طريق ابن الزبير عن جابر قال: اشتكيت وعندى سبع أخوات فدخل على رسول الله ﷺ فنفخ فى وجهى فأفقت فقلت يا رسول الله ألا أوصى لأخواتى بالثلث قال أحسن قلت الشطر قال أحسن ثم خرج وتركنى فقال يا جابر لا أراك ميتا من وجعك هذا وإن الله قد أنزل فبيَّن الذى لأخواتك فجعل لهن الثلثين قال فكان جابر يقول أنزلت هذه الآية فى (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة)[2].

وروى الشيخان عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» وآخر سورة نزلت براءة[3].

وقد تعددت الآراء فى آخر الآيات نزولا، فمن قائل إنها آية الربا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [سورة البقرة – الآية: ٢٧٨]. ومنهم من يقول: إن آخر الآيات نزولا ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [سورة البقرة – الآية: ٢٨١].

ومن المرجح – على كل حال – أن تكون آخر آية نزلت من آيات الأحكام آية الكلالة هذه؛ يؤيد ذلك فى – نظرى – ما ثبت فى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدا ننتهى إليه، الجدّ والكلالة وباب من أبواب الربا[4]. وهذا يدل على أن العهد قريب جدا بين نزول آية الكلالة وبين أنْ لحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى.

وأما آخر الآيات عموما فى النزول فهى قول الله ـ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى

(١) سنن أبى داود رقم (٢٨٨٧).

(٢) صحيح البخارى ٦/ ٥٤ – ٥٥. ولباب النقول/ ٨٢.

(٣) صحيح البخارى ٦/ ٦٣.

(٤) عمدة التفسير للحافظ ابن كثير ٤/ ٥٦.

﴿ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ كما سبق ذكره.

من كل ما سبق يتبين لنا أن سورة النساء مدنية بإجماع آراء المفسرين، وهى سورة النساء الكبرى خلافا لسورة الطلاق والتى هى سورة النساء الصغرى.

كما يفهم من تاريخ نزول آياتها أنها بدأت نزولا منذ الأيام الأولى لحياة الرسول الكريم بالمدينة، وظلت مفتوحة طوال العهد المدنى؛ ترسم الطريق الصحيح والمنهج القويم لحياة المسلمين فى المدينة وتنظم لهم أمور معيشتهم وشئون حياتهم.

❑❑❑

الفصل الثانى

قراءات السورة

قراءات وإعراب سورة النساء

القــراءات؛ علــم لبيان كيفية تجويد قراءة[1] القرآن، وهو حليــة القراءة، وذلك بإعطاء الحروف حقوقها وترتيبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف، ومن هنا فإن النبى ﷺ كان يحب سمــاع القرآن من ابن مســعود لتمتعه - رضى الله عنه - بهــذه الصفات فى قراءة القرآن. ومــن ثــم فإنه ﷺ قال «من أحب أن يقرأ القرآن غضــا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[2] يعنى ابن مسعود، قال السيوطى: «وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا»[3].

قال ﷺ لعبد الله بن مسعود: اقرأ على. قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم. فقرأت ســورة النســاء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾. قــال: حســبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[4].

واللحــن، هو الخــروج عن قواعد اللغة العربية الصحيحــة، وقد حث النبى ﷺ على إعــراب القــرآن لما روى عن عبد الله المقبرىّ عن أبيه عن جــده عن أبى هريرة: أن النبى ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن والتمســوا غرائبه»[5]. وإلى هذا المعنى أشــار ابن مســعود بقوله: جردوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأعربوه فإنه عربى والله يحب أن يعرب به.

---

(١) التجويد؛ بمعنى الإجادة، ويقصد بها إجادة القرآن ولا يُظن بأنها تلك الحرفة التى انتشرت فى أيامنا هذه من قراءة الملحنين للقرآن والذين يحيون الليالى على اختلاف مناسباتها وتنصب لهم الميكروفونات والسماعات ذات الترددات المزعجة فليس ذلك من الدين فى شىء.

(٢) راجع نيل الأوطار للشوكانى ٢/٢٦١ و البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ١٣٥.

(٣) راجع: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/ ١٣٢.

(٤) حديث صحيح. صحيح البخارى رقم (٥٠٥٠).

(٥) بلفظ أعربوا سنده ضعيف. العراقى فى تخريج الإحياء ١/ ٣٨٤.

ومن غير معرفة إعراب القرآن الكريم تتغير المعانى فيه بحيث لا يكون قرآنا؛ فعن ابن أبـى مليكة قال: قـدم أعرابى فى زمان عمر بن الخطاب – رضـى الله عنه، فقال: «من يقرئنـى بما أنزل الله على محمد ﷺ؟ قال: فأقـرأه رجل براءة؛ فقال: أن الله برىء من المشركين ورسوله (بالجر) فقال الأعرابى: أوقد بَرِئ الله من رسوله فإن يكن الله برىء من رسـوله فأنا أبرأ منه فبلغ عمر مقالة الأعرابى، فدعاه فقال: يا أعرابى! أتبرأ من رسـول الله ﷺ؟ فقال يا أمير المؤمنين، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت مَن يُقْرِئُنِى؟. فأقرأنى هذا سورة براءة. فقال: أن الله برىء من المشركين ورسوله. فقلت: «أوقد برئ الله من رسـول، إن يكن الله برىء من رسـوله، فأنا أبرأ منه. فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابى قال: فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۝٣﴾ [سورة التوبة – الآية ٣]. (بالضم) فقال الأعرابى: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسـوله منه. فأمر عمـر بـن الخطاب – رضـى الله عنه – ألا يُقرئ الناسَ إلا عالمٌ باللغة. وأمر أبا الأسـود فوضع النحو[1].

والقرآن الكريم نزل على سـبعة أحرف، كلها شـافٍ كافٍ، وكيفما كان الأمر فى كُنْه هذه السـبعة فإنها صحيحة متواترة يُتعبد بالقراءة بها. روى مسلم عن أُبىّ بن كعب قال: «كنت فى المسجد. فدخل رجل يصلى. فقرأ قراءة أنكرتها عليه. ثم دخل آخر. فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه. فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله ﷺ. فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه. ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه. فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ. فحسن النبى ﷺ شأنهما. فسقط فى نفسى من التكذيب. ولا إذا كنت فى الجاهلية. فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشينى ضرب فى صدرى. ففضت عرقا. وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقا. فقال لى «يا أبى! أرسل إلى: أن اقرأ القرآن على حرف. فرددت إليه: أن هون علـى أمتى. فرد إلى الثانية: اقرأه على حرفين. فرددت إليه: أن هون على أمتى. فرد إلى الثالثة: اقرأه على سـبعة أحرف. فلك بكل ردة رددتها مسـألة تسألينها. فقلت: اللهم! اغفر لأمتى. وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم. حتى إبراهيم عليه السلام»[2].

يتبين من كل ما سـبق الأهمية البالغة للنحو والقراءات فى تلاوة القرآن الكريم والنسـاء واحدة من السور.

(١) راجع فى ذلك: تفسير القرطبى ١ / ١٥ وما بعدها.

(٢) حديث صحيح. صحيح مسلم رقم (٨٢٠).

ولنشرع فى البيان إن شاء الله تعالى:

قـول الله تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [سورة النساء – الآية: ١، ٢].

قرأ عاصم وحمزة والكسـائي وخلف العاشـر تَسَـاءَلُونَ بتخفيف السين[1] على حذف إحدى التائين، فأصلها تتَسَاءَلونَ.

بينما قرأ الباقون بالتشـديد[2] تَسَّـاءَلُونَ على إدغام التاء فى السـين، وقد حدث هذا الإدغام لأن التاء لها صفات السـين، فهما من الحروف المهموسـة، كما أنهما متقاربان فى المخرج، إذ إن مخرج السـين من طرف اللسـان مع الثنايا، ومخرج التاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا[3].

والقياس فى إدغام ما يُدغم من الحروف المتقاربة، هو قلب الأول إلى الثانى، لا العكس، إلا إذا دعـا الحـال إلى ذلك نحـو (أذْكر وادّكر)[4] ولما كان التقـاء المثلين مكروهاً لثقله من الإدغام فقلب المتقارب أوكد من تسكين النظير[5].

– كما قرأ حمزة «والأرحامِ» بالخفض عطفاً على الضمير المجرور فى(به). وقرأ الباقون بنصبها[6] عطفاً على لفظ الجلالة.

واختلف علماء النحو فى خفض (والأرحام) **فقال الكوفيون**: هو قبيح. وقال البصريون: هو لحن لا تحل القراءة به.

وقال **سيبويه** لا يعطف على المضمر المخفوض لأنه بمنزلة التنوين، والتنوين لا يعطف عليه. وقال جماعة: هو معطوف على المكنى فإنهم كانوا يتساءلون بها يقول الرجل: سألتك بالله والرحم[7].

ولا أرى لعلماء النحو مسوغاً فى اختلافهم هذا أمام تواتر القراءة. فمن ردّها أو استقبحها

(١) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ٢ / ٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ونفس الصفحة.
(٣) علم اللغة العام(الأصوات) كمال محمد بشر ٩٣.
(٤) علم الفصاحة العربية لمحمد على رزق / ٢٤٥.
(٥) الخصائص لابن جنى٢ / ١٤٠ بتحقيق محمد على النجار.
(٦) النشر فى القراءات العشرلابن الجزرى ٢/ ٢٤٧.
(٧) تفسير القرطبى ٣/ ١٥٧٢ – ١٥٧٣.

فقد ردّ ذلك على الله عز وجل، إذ نزل بها الوحى الأمين.

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ﴾ [سورة النساء – الآية ٢].

بالطيب مفعول ثان لـ تتبدلوا، والباء زائدة فيها للمقابلة وتدخل على المتروك كما فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [سورة البقرة – الآية ٦١] والطيب – فى الآية – مال الأوصياء على اليتامى الذى أحله الله لهم، والخبيث مال اليتامى حينما يستقل به الأوصياء.

وقد كانوا فى الجاهلية لا يتحرجون عن أموال اليتامى فيأخذون الجيد منه، ويبدلونه بالردىء، ويقولون: اسم باسم، ورأس برأس فنهاهم الله عن ذلك[1].

إلى أموالكم؛ حرف الجر متعلق بمحذوف، والتقدير: مضافة إلى أموالكم. والجملة فى موضع الحال.

إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً. حوبا، اسم مصدر، أى إثما عظيما، وفيه ثلاث لغات؛ حُوبا بضم الحاء، وهى قراءة العامة ولغة أهل الحجاز وبها جاء التنزيل.

وقرأ الحسن – شاذا – حَوبا (بفتح الحاء) وقرأ أُبَيُّ (حابا) على المصدر مثل القال[2].

قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [سورة النساء – الآية ٣].

فانكحوا؛ جواب الشرط فى قوله: وإن خفتم. فقد كانوا يتحرجون من الولاية فى أموال اليتامى، ولا يتحرجون من الاستكثار من النساء، والجَوْر يقع بينهن إذا كثرن. فكأنه يقول لهم: إذا تحرجتم من هذا فتحرجوا من ذاك[3].

وهناك من يجعل فواحدة؛ جواب الشرط لقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ كأنه؛ على تقديرهم إن خفتم ألا تقسطوا فى نكاح اليتامى فانكحوا واحدة، ولما طال الفصل ذكر فإن خفتم ألا تعدلوا[4].

وهذا التقدير فيه نظر؛ لأنه أهمل الجواب الأول ﴿فَانْكِحُوا﴾ والآية – فى الحقيقة – بها أسلوبا شرط، الأول: (وإن خفتم) وجوابه (فانكحوا).

---

(١) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٧٩.

(٢) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٨٠ – ١٥٨١ .

(٣) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٨١.

(٤) إملاء ما منّ به الرحمن للعكبرى ١ / ١٦٦ .

والثانى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ وجوابه (فواحدة).

﴿تُقْسِطُواْ﴾ قرأ ابن وثاب والنخعى – شاذا – تَقسطوا بفتح التاء من (قَسَط) على تقدير زيادة (لا)[1].

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ حمزة يميل طاب. والإمالة لغةً: مصدر أملت الشيء إمالة: عدلتُ به إلى غير الجهة التى هو فيها.

واصطلاحا: أن تذهب بالفتحة إلى جهة الياء إن كان بعدها ألف، كالفتى، وإلى جهة الكسرة إن لم يكن ذلك (كنعمة وبسحر) وأصحابها: بنو تميم وأسد، وقيس وعامة نجد[2].

وفائدة الإمالة، سهولة اللفظ؛ ذلك أن اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع. فلهذا أمال من أمال. وأما من فتح فإنه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل[3].

وإمالة ﴿طَابَ﴾ للياء التى تَعْرِض لفائها عند اتصال ﴿طَابَ﴾ بالضمير المرفوع (متكلم – مخاطب – نون جماعة). هذا قول سيبويه ويمكن أن يقال: إن الإمالة فيها ليست بسبب أن الألف منقلبة عن ياء، ولكن إذا أطلقوا المنقلب عن ياء أو واو فى هذا الباب فلا يريدون إلا المتطرف[4].

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ معدولة من الأعداد اثنين وثلاثة وأربعة. وليس حصرا للعدد؛ وهي بمعنى اثنين اثنين، وثلاث ثلاث، وأربع أربع. والواو بدل وضع فاصلة، انكحوا ثلاثاً بدلا من اثنين، ورباعا بدلا من ثلاث، ولذا كان العطف بها وليس بـ (أو) التى لو جاء العطف بها لما جاز لصاحب المثنى ثلاث، ولا لصاحب الثلاث رباع. فالواو – إذاً – ليست للعطف الموجب للجمع[5].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ [سورة النساء – الآية: ٣].

---

(١) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٨٢ و شذا العرف للحملاوى / ١٧٢.

(٢) شذا العرف للحملاوى / ١٧٢.

(٣) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٣٥.

(٤) نفس المصدر ٢ / ٣٤ .

(٥) تفسير القرطبى ٣/١٥٨٥.

قــرأ أبــو جعفر ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ بالرفع وقــرأ الباقون بالنصب[1]؛ فالرفــع على أنها فاعل والتقدير؛ فتكفى واحدة، أو خبر لمبتدأ محذوف على تقدير فالمُقنع واحدة، أو مبتدأ لخبر محذوف؛ فواحدةٌ تكفى. وعلى هذه القراءة فإن الرجل يكتفى بالواحدة إذا خاف الجور.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾. (أو) حــرف عطــف يفيد التخيير؛ فملك اليمين معطوف على (فواحــدة)؛ أى إن الله جعل ملك اليمين بمنزلة الواحدة فانتفى بذلك أن يكون لأَمَةٍ، حق فى الوطء أو القسم .

قــول الله تعــالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾ [سورة النساء – الآية ٥].

قــرأ نافع وابن عامــر ﴿قِيَمًا﴾ بغير ألف بعد الياء، وقرأ الباقــون بالألف[2]. والقيام والقوام؛ ما يقيم؛ ولما انكسرت القاف من قوام أبدلوا الواو ياء. وقِيَمًا وقواما بمعنى: قياما، وانتصب على المصدر[3].

وقرأ عبد الله بن عمر (قواما) بالواو. وقوام الشــىء ما يقام به؛ كقولك: هو ملاك الأمر لما يملك به. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن[4].

قــول الله تعــالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [سورة النساء – الآية ١٠].

قرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الياء فى قوله (سيصلون) وقرأ الباقون بفتحها[5].

وضم الياء على ما لم يُسَمَّ فاعله، من أصلاه الله حر النار إصلاء؛ أى يوضع فيها مرغما بقصد التعذيب كما فى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [سورة المدثر – الآية ٢٦].

وقرأ أبو حَيوة – شــاذا – (سـيُصلون) بضم الياء وتشــديد اللام، وهو يفيد كثرة الفعل والمبالغــة فيــه، كما فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ [ســورة الحاقة – الآية ٣١]. وقُرِئ (سيَصلون) بفتح الياء، من صلى النار صلا وصلاء، أى يعذب هو بذاته؛ إذ الصلاء:

---

(١) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٤٧ .

(٢) نفسه ٢/ ٢٤٧.

(٣) تفسير القرطبى ٣/ ١٦٠١.

(٤) تفسير الكشاف للزمخشرى ١/ ٣٤٨ .

(٥) النشر فى القراءات العشر ٢/ ٢٤٧.

التسخين بقرب النار أو مباشرتها[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١١]..

قرأ المدنيان[2] (واحدة) بالرفع وقرأ الباقون بالنصب[3]. فمن قرأ بالرفع فعلى معنى (كان التامة) والتقدير: وإن وجدت واحدة. ومن قرأ بالنصب فعلى معنى (كان الناقصة) أى: وإن كانت الوارثة واحدة.

قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١١].

قرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة فى قوله (فلأمه) وهى لغة حكاها سيبويه وقال الكسائى: هى لغة كثير من هوازن وهُذيل. وخرّجها النحاس بقوله: لما كانت اللام مكسورة، وكانت متصلة بالحرف، كرهوا ضمة بعد كسرة، فأبدلوها بالضمة، ومن ضم جاء على الأصل لإمكانية انفصال اللام لأنها داخلة على الاسم[4].

قوله تعالى: ﴿بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١١].

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد فى (يوصى) فى الموضعين، ووافقهم حفص فى الأخير منهما. وقرأ الباقون بكسر الصاد فيهما[5]؛ لأنه جرى ذكر الميت قبل ذلك وتصديق ذلك (يوصين وتوصون) قال الطبرى والآية: كلها عمن قد سُمّى فاعله.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١١] فالقراءة بالكسر أولى من الفتح[6].

والحقيقة أن الطبرى – رحمه الله – جانب الصواب فى ترجيح قراءةٍ على أخرى، فكل منهما تواتر عن النبى ﷺ، وكان عليه أن يذكر القراءة والوجه الذى تحتمله، لا أن يرجح إحداها على الأخرى.

﴿بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ يجوز أن تكون حالا من (السدس) والعامل فيها الظرف، والتقدير: مستحقا من بعد وصية.

---

(١) تفسير القرطبى ٢/ ١٦٢٣ – ١٦٢٤.

(٢) المدنيان هما نافع وأبو جعفر .

(٣) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٤٧ .

(٤) نفسه ٢ / ٢٤٧ .

(٥) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٤٨ .

(٦) تفسير الطبرى ٨ / ٤٨ تحقيق.

ويجـوز أن تكـون ظرفا، أى يسـتقر لهـم ذلك بعد إخـراج الوصية ولابـد من تقدير حـذف المضاف، لأن الوصية – هنا – المال الموصـى به. وقيل: تكون الوصية مصدراً مثل الفريضة[1].

﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ ليست (أو) – هنا – للتخيير، ولكنها للجمع المطلق كالواو.

قولـه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١٢].

﴿كَانَ﴾ – فـى هذه الآيـة – إما أن تكون تامة أو ناقصة، فإن كانت تامة فيكون ﴿رَجُلٌ﴾ فاعلهـا، وهـو الميـت، و ﴿يُورَثُ﴾ صفـة لـه، و ﴿كَلَٰلَةً﴾ حال من الضمـير فـى ﴿يُورَثُ﴾، ويكون معنى الكلالة – على هـذا – الميت الذى لم يترك والداً ولا ولداً[2].

وإن كانـت ﴿كَانَ﴾ ناقصـة فيكـون ﴿رَجُلٌ﴾ اسمهـا، و ﴿يُورَثُ﴾ خبرها، و ﴿كَلَٰلَةً﴾ حال أيضاً.

وقد قرأ بعض الكوفيين (يورث) بكسـر الراء وتشـديدها، وقرأ الحسن وأيوب (يورث) بكسر الراء وتخفيفها[3].

فمـن قـرأ بفتح الراء احتمـل أن تكون الكلالة المال والتقديـر – حينئذ – يورث وراثة كلالة.

قول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء – الآية ١٢].

قرأ أبىّ – شـاذاً – وله أخ أو أخت من الأم، وقرأ سـعد بن أبى وقاص – شاذا أيضا – أو أخت من أم[4].

وهذه القراءة – وإن كانت من الشواذ – إلا إنها تقطع بأن آية الكلالة هذه تعنى الأخوة والأخوات لأم؛ يؤيد ذلك أنصباؤهم من التركة، فإذا اجتمعوا اشتركوا فى الثلث بالتساوى

---

(١) إملاء ما من به الرحمن للعكبرى ١ / ١٦٩ .

(٢) تفسير الطبرى ٨/ ٥٨ وإملاء ما من به الرحمن ١/ ١٦٩ .

(٣) تفسير القرطبى ٣/ ١٦٤٧ .

(٤) تفسير الطبرى ٨/ ٥٨ .

بين الذكر والأنثى، وليس ميراث الأشقاء أو لأب كذلك، فقد بينت آيةُ الكلالة الأخيرة من السورة نصيب كل واحد منهم. إلا أن آيتى الكلالة - الأولى والثانية - من السورة اشتركت فى الدلالة على أن الإخوة بأى طريق يورثون ميراث كلالة، أو هم كلالة فى حالة فقد الأصل الوارث أو الفرع الوارث.

قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٢].

﴿غَيْرَ﴾ نصب على الحال، والعامل (يوصى) ويكون المعنى - والله أعلم - يوصى بها غير مدخل الضرر على الورثة. والإضرار راجع إلى الدين والوصية؛ فأما الإضرار بالدين؛ فوصية المورث بدين ليس عليه للإضرار بورثته. وأما الإضرار بالوصية فبأن يوصى بأكثر من الثلث[1].

وقرأ الحسن - شاذا - غير مضار وصية (بتشديد الراء وكسر التاء فى وصية) وزعم بعض أهل اللغة - كما يقول القرطبى - أنه لحن حيث أضاف اسم الفاعل إلى المصدر. ولكن القراءة يحسنها القرطبى على حذف بتقدير؛ غير مضار ذى وصية أو؛ وقت وصية.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٩].

قرأ حمزة والكسائى وخلف بضم الكاف فى ﴿كَرْهًا﴾، وقرأ الباقون بالفتح[2].

قال ابن منظور: أجمع كثير من أهل اللغة أن (الكره) و (الكُره) (بالفتح للأولى، والضم للثانية) لغتان، وبأى لغة وقع فهو جائز، ومعناها واحد. إلا أن الفرّاء زعم أن الكُره (بالضم) ما أكرهت نفسك عليه تقول: جئتك كُرها (بالضم)، والكَره (بالفتح) ما أكرهك غيرك عليه تقول: أدخلتنى كَرها. والكره (بالضم) المشقة كما فى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ ﴿٢١٦﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ٢١٦].

ولم يقرأ أحد بالفتح. وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴿٨٣﴾﴾ [سورة آل عمران - الآية ٨٣].

ولم يقرأ أحد بضم الكاف، فيصير الكره (بالفتح) فعل المضطر[3].

---

(١) تفسير القرطبى ٣ / ١٦٥٠ وإملاء ما منّ به الرحمن ١ / ١٧٠.

(٢) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٤٨ .

(٣) لسان العرب، مادة (ك ره).

وعلى القراءتين فإن معنى الآية: لا يحل لكم أن تأخذوا النساء على سبيل الإرث كارهات لذلك أو مكرهات عليه. وقد انتصب (كرها) على الحال من المفعول.

ولفظ (النساء) في الآية إما أن يكون مفعول أول، أو مفعول ثان؛ فإن كان مفعولا أولا كانت (النساء) هي الموروثات كالمتاع، كما كان الحال في الجاهلية، وإن كان اللفظ مفعولا ثانيا فيكون التقدير: بأن يرثوا من النساء المال[1].

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٩].

قرأ نافع وأبو عمرو (مبيِّنة) بكسر الياء، وقرأ الباقون بفتحها، وقرأ ابن عباس بكسر الباء وسكون الياء[2]. فمن فتح الياء فقد جعلها اسم مفعول بمعنى: قد بينت لكم وأعلنت. ومن قرأ بالكسر فقد جعلها اسم فاعل، أى: إنها ظاهرة للناس.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٢٤].

قرأ الكسائى بكسر الصاد حيث وقع معرفا أو منكرا فى قوله والمحصنات، إلا الحرف الأول - من هذه السورة - وهو قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فقد قرأ بفتح الصاد كالجماعة، لأن معناه ذوات الأزواج، وكذلك قرأ الباقون[3].

وأصل الإحصان: المنع، والمرأة تكون محصنة بالإسلام أو العفاف، والحرية، والتزويج، ويقال: أحصنت المرأة فهى محصَنة ومحصِنة (بالفتح والكسر) وكل امرأة عفيفة محصَنة ومحصِنة. أما كل امرأة متزوجة فهى محصَنة (بالفتح لا غير) وقد قال أبو عبيد: أجمع القراء على نصب الصاد فى الحرف الأول من النساء، فلم يختلفوا فى فتح هذه لأن تأويلها ذوات الأزواج، يُسْبَيْن فيحلهن السباء لمن وطئها من المالكين لها، وتنقطع العصمة بينهن وبين أزواجهن بأن يحضن حيضة ويطهرن منها. فأما سوى الحرف الأول من هذه السورة فالقُرّاء مختلفون؛ فمن نصب الصاد، ذهب إلى ذوات الأزواج، ومن كسرها ذهب إلى أنهن أسلمن فأحصن أنفسهن فهن محصنات[4].

قول الله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ سورة النساء - الآية ٢٤].

قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائى وخلف وحفص بضم الهمزة فى وأُحِل، وكسر الحاء،

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ١ / ١٧٢ .

(٢) النشر لابن الجزرى ١ / ٢٤٨ وتفسير القرطبى ٣ / ١٦٦٦ .

(٣) النشر ٢ / ٢٤٩ .

(٤) لسان العرب، مادة: (ح ص ن) .

وقرأ الباقون بفتحها[1]. فمن قرأ بالضم فقد جعلها معطوفة على (حرمت عليكم).

ومن قرأ بالفتح فعلى تسمية الفاعل، و (أحل) معطوفة على الفعل الناصب لـ (كتاب) وظاهر ذلك يقضى ألا يحرم من النساء إلا من ذكر، وليس كذلك: فإن الله حرم على لسان نبيه ﷺ ما لم يذكر فى الآية؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا يُجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها[2].

والقول فى ذلك أن الحديث متلقى من آية التحريم، فالنهى عن الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها مأخوذ من الآية ، لأن الخالة فى معنى الوالدة، والعمة فى معنى الوالد. ويصير المعنى – على قراءة المصحف – قد أحللتُ لكم ما وراء ما ذُكر فى الكتاب، وما أكملت به البيان على لسان محمد ﷺ، إذ أن السنة موضحة للقرآن ومفسرة له[3].

قول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٣١].

قرأ المدنيان (مَدخلا) بفتح الميم وقرأ الباقون بضمها[4].

وقال ابن منظور: (المَدخل) بالفتح؛ الدخول، وموضع الدخول أيضاً، تقول دخلت مدخلا – بالفتح – حسنا، ودخلت مدخل صدق. والمُدخل (بالضم) الإدخال، والمفعول من أدخله، تقول: أدخلته مدخل صدق[5].

وعلى هذا فإن مُدخلا (بالضم) يحتمل أن تكون بمعنى المصدر (إدخالا)، والمفعول محذوف والتقدير: وندخله الجنة إدخالا، ويحتمل أن تكون بمعنى المكان فتكون مفعولا. وأما مَدخلا (بالفتح) فيجوز أن تكون مصدر دخل ويكون منصوبا بإضمار فعل.

ومن العجيب أن الطبرى – رحمه الله – يرجِّح القراءة بالضم؛ ويعلل ذلك بقوله: إن الفعل (أدخل) مبنى على أربعة أحرف، والمدخل مصدره أولى من مفعل[6]. وكأنه يريد أن يخضع القراءات التى ثبتت بالتواتر لقواعد اللغة، وليس كذلك، فالأصل أن نحتكم فى قواعد اللغة إلى القرآن لا العكس، وفى هذا الصدد يقول الدكتور لبيب سعيد: وكان على

(١) النشر فى القراءات العشر – ٢ / ٢٤٩ .

(٢) صحيح مسلم – الحديث رقم ١٤٠٨ – ٢ / ١٠٢٨ .

(٣) تفسير القرطبى ٣ / ١٦٩٤ .

(٤) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٤٩ .

(٥) لسان العرب ٢ / ١٣٤١.

(٦) تفسير الطبرى ٨ / ٢٥٩ .

الطبرى – وغفران له – أن يحتكم كالجماعة إلى النقل وحده؛ ولا يجعل للنحو والصرف، ولا للقياس سبيلا على كلام الله، وكان بحسبه أن يذكر أنه لو كان القراء يقرءون بما يشتهون ما أجمعوا كلهم على قراءة ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة الإسراء – الآية ٨٠] بضم الميم فى (مدخل) وفى (مخرج) لأنها لم تتواتر عند أحد منهم إلا بهذا الضبط[1].

قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٣٣].

قرأ الكوفيون[2] (عقدت) بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف[3]؛ فمن قرأ بالألف؛ فهى بمعنى عاقدت أيمانكم وأيمانهم الحلف بينكم وبينهم، ومن قرأ بغير ألف فإنها بمعنى؛ والذين عقدت أيمانكم الحلف بينكم وبينهم. ولكن القرطبى يستبعد قراءة (عقدت) بغير ألف ويعلل لذلك بقوله: أن المعاقدة لا تكون إلا من اثنين فصاعدا فبابها فاعل[4].

والطبرى يعلق على القراءتين، ولا يرى بأساً بقراءة (عقدت) وفى نظره أن من يقول بأن المعاقدة لا تكون إلا من اثنين فصاعدا – فى هذا الموضع – فقد أغفل موضع دلالة قوله (أيمانكم)؛ وفى رأيه أن العقد – هنا – إنما هو صفة للإيمان دون العاقدين الحلف[5]. وهذا ما أراه صوابا خاصة مع تواتر القراءة.

قول الله تعالى: ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية: ٣٤].

قرأ أبو جعفر ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ بنصب لفظ الجلالة، وقرأ الباقون بالرفع؛ فمن قرأ بالنصب فقد جعل (ما) موصولة، وفى (حفظ) ضمير يعود عليه مرفوع، أى بالبر الذى حفظ حق الله من العفاف وغيره. وقيل: بما حفظ دين الله، وتقدير المضاف متعين، لأن الذات المقدسة لا ينسب حفظها إلى أحد[6]. والطبرى يقبّح القراءة بالنصب فى العربية،

---

(١) دفاع عن القراءات المتواترة فى مواجهة الطبرى المفسر / ٥٥

(٢) عاصم وحمزة والكسائى وخلف العاشر.

(٣) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٤٩.

(٤) تفسير القرطبى ٣ / ١٧٣٧.

(٥) تفسير الطبرى ٨ / ٢٧٢ – ٢٧٣.

(٦) النشر فى القراءات العشر – ٢ / ٢٤٩.

ويعلـل لذلك بقوله: لخروجه عن المعروف فى منطوق العرب؛ وذلك لأن العرب لا تحذف الفاعـل مع المصادر، من أجل أن الفاعـل إذا حذف معها لم يكن للفعل صاحب معروف.

ويرد الدكتور لبيب سـعيد على الطبرى بقوله: وأبو جعفر الذى يقبح قراءته الطبرى أحد القراء العشـرة الذين تواترت قراءاتهم جميعا؛ وتواتر هذه القراءات شامل لأصلها وأجزائها ووضعها وترتيبها، ولا يُقبل أى حكم جائر يصدر عن أى إنسـان على القراءات المتواترة.. كما يرى الدكتور أن أى قراءة متواترة ليست جائزة فحسب. إنما هى واجبة وجوبا بسبب أساسى هى أنها بعض النص القرآنى المعجز دائما بلفظه ومعناه كليهما[1].

قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٤٢].

قرأ حمزة والكسائى وخلف بفتح التاء وتخفيف السين فى قوله (تَسَوى). وقرأ المدنيان وابن عامر بفتح التاء وتشديد السين. وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين[2].

فعلى الوجه الأول والثانى فبمعنى: لو تتسـوى بهم الأرض، أى تمنوا لو انفتحت بهم الأرض فسـاخوا فيها، أو يودون لو صاروا ترابا فكانوا هم والأرض سـواء، والأرض – هنا – فاعل. و ﴿ تُسَوَّىٰ ﴾ بتشـديد السـين والواو، أصلها: تتسـوى، وأدغمت التاء الثانية فى السين.

وأما من فتح التاء وخفف السـين وترك التشديد، فإنه قد علل لذلك بأن العرب لا تكاد تجمع بين تشديدتين بحرف واحد، فالتشديد على الإدغام، والتخفيف على حذف التاء.

ومن قرأ ﴿ تُسَوَّىٰ ﴾ بضم التاء وتخفيف السين وتشديد الواو فهى على ما لم يسم فاعله، والهاء فى (بهم) بمعنى (على) أى: لو تسوى عليهم[3].

قـول الله تعـالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٤٣].

قرأ حمزة والكسـائى وخلف (لمستم) بغير ألف وقرأ الباقون بالألف[4]. اللمس: الجس، والمـس باليد. واللمس: كناية عن الجماع، والملامسـة أكثر ما جاءت من اثنين، كما يقول

(١) دفاع عن القراءات المتواترة فى مواجهة الطبرى المفسر / ٢١ .

(٢) النشر فى القراءات العشر – ٢ / ٢٤٩ .

(٣) تفسير القرطبى ٣ / ١٧٦٨ وتفسير الطبرى ٨ / ٣٧٢ .

(٤) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٤٠ .

ابن منظور[1].

وعلى هذا فالقراءتان كناية عن الجماع والغشيان، خاصة وقد صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قبّل بعض نسائه، ثم صلّى ولم يتوضأ، فعن عائشة قالت: «كان النبى ﷺ يتوضأ، ثم يقبّل، ثم يصلى ولا يتوضأ[2]. وعنها - رضى الله عنها - أنها قالت: كنت أنام بين يدى رسول الله ﷺ ورجلاى فى قبلته، فإذا سجد غمزنى فقبضت رجلى، فإذا قام بسطتها والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح[3].

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٩٤].

قرأ حمزة والكسائى وخلف (فتثبتوا) من التثبت، وقرأ الباقون (فتبينوا)[4]. التبين بمعنى النظر والكشف عنه حتى يتضح. يقال: تبين الأمر، وتبين الأمر بنفسه، فهو متعد ولازم. وتثبتوا: من التثبت الذى هو خلاف العجلة.

والتبين يكون فى الأشياء المشاهدة والتى يمكن للإنسان رؤيتها وملاحظتها، وأما التثبت فهو فى الأشياء المخفية غالبا[5].

بيد أن التثبت يدخل فيه أحكام كثيرة من الاعتقادات والأخبار والأفعال وسائر الأعمال ويجب - بموجب الثبات - الأخذ بالظاهر: فمن أظهر الإسلام أو شيئا من شعائره لا يُكَذَّب بل يقبل منه.

والآية تدعو إلى التبين الذى هو فى المشاهد، وإلى التثبت وعدم العجلة فى الحكم على الأشياء. فالقراءتان متمشيتان مع أسباب نزول الآية الكريمة.

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴿٩٤﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٩٤].

قرأ المدنيان وابن عامر وحمزة وخلف (السلام) بحذف الألف، وقرأ الباقون بإثباتها[6].

---

(١) لسان العرب مادة (ل م س) .

(٢) صحيح تفسير الطبرى ١٤٢/١/٤. و عمدة التفسير لابن كثير ٣ / ١٨٥

(٣) صحيح. صحيح البخارى رقم (٥١٣) سنن النسائى ١ / ٨٥.

(٤) النشر فى القراءات العشر - ٢ / ٢٥١ .

(٥) تفسير الطبرى ٩ / ٨١ - ٨٢ وتفسير القرطبى ٣ / ١٩٠٧ وما بعدها .

(٦) النشر ٢ / ٢٥١.

وقال البخارى: (السِّلْم والسَّلْم والسلام واحد)[1].

يقول ابن منظور: السلم: الإسلام. والسلم الاستخذاء والانقياد والاستسلام. وقوله تعالى: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا»وقرئت (السلام) بالألف. فأما السلام فيجوز أن يكون من التسليم، ويجوز أن يكون بمعنى: السَّلم وهو الاستسلام وإلقاء المقادة إلى إرادة المسلمين[2].

والآية نزلت فى رجل قتله المسلمون فى سرية من السرايا، وكان قد ألقى عليهم السلام مستسلما لهم، ومنقادا، وخاضعا لأمرهم. وفى رواية أخرى أنه قال: أشهد أن لا إله إلا الله[3] فيكون بذلك قد أظهر إسلامه، ويكون معنى السلام والسلم هو: الانقياد والخضوع والاستسلام وإظهار الإسلام، وكذلك قوله: السلام عليكم، يقصد التحية والله – تعالى – أعلم.

وقوله تعالى (لست مؤمنا) قرأ أبو جعفر (مؤمَنا) بفتح الميم الثانية. وقرأ الباقون بكسرها[4]. فمن قرأ بالفتح فعلى اسم المفعول، أى: لا نؤمنك على نفسك. ومن قرأ بالكسر، فمن الإيمان؛ أى إنك تتظاهر بالإيمان كى تأمن منا.

قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة النساء – الآية: ٩٥].

قرأ المدنيان وابن عامر والكسائى وخلف بنصب الراء فى (غير) وقرأ الباقون برفعها[5]. وقرأ أبو حيوة – شاذا – (غيرِ) بالجر[6].

فمن قرأ بالنصب فعلى الاستثناء من القاعدين، أو من المؤمنين وتكون بمعنى؛ إلا أولى الضرر فإنهم يستوون مع المجاهدين.

ومن قرأ بالرفع. فقد جعلها نعتا للقاعدين؛ لأنهم لم يقصد بهم قوم بأعيانهم. فصاروا كالنكرة، وجاز وصفهم بغير، ويصير المعنى – والله أعلم – لا يستوى القاعدون الذين هم غير أولى ضرر، ومن قرأ بالكسر فقد جعلها نعتا للمؤمنين الذين هم غير أولى الضرر من المؤمنين الأصحاء.

---

(١) صحيح البخارى ٦/٥٩.

(٢) لسان العرب، مادة (س ل م).

(٣) تفسير الطبرى ٩ / ٧٨ .

(٤) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٥١ .

(٥) المصدر السابق: ٢ / ٢٥١ .

(٦) القرطبى ٣ / ١٩١٣ وتفسير الكشاف ١ / ٣٨١ .

قول الله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٢٨].

قرأ الكوفيون (يُصلحا) بضم الياء وإسكان الصاد وكسر اللام من غير ألف. وقرأ الباقون بفتح الياء والصاد واللام وتشديد الصاد وألف بعدها[1](يَصَّالَحا).

وعلى القراءة الأولى فإن (يُصلحا) بمعنى أصلح الزوج والمرأة بينهما. وعلى الثانية (يصَالحا) فإنها بمعنى يتصالحا، ثم أدغمت التاء فى الصاد فصارت صاداً مشددة وهى الأفصح والأكثر على ألْسنة العرب من الإصلاح، ويقال تصالح القوم، لا أصلح القوم[2].

قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٣٥].

قرأ ابن عامر وحمزة (تلُوا) بضم اللام وواو ساكنة بعدها، وقرأ الباقون بإسكان اللام وبعدها واوان؛ أولاهما مضمومة والأخرى ساكنة[3]. فمن قرأ (تلووا) بواوين فهى من لوى يلوى ليا، واللىّ؛ هو المدافعة، والأصل تلويوا، وحذفت الضمة على الياء، لثقلها، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمت الواو لأجل واو الضمير[4].

قال ابن عباس: هو القاضى يكون ليُّه وإعراضه لأحد الخصمين على الآخر؛ أى تشدده وصلابته. أو أنها من لوانى الرجل حقى، والقوم يلوونى دَيْنِى، وذلك إذا مطلوه.

وأما من قرأ (تلو) بواو واحدة، فإنها بمعنى الولاية أى؛ وإن تلوا أمور الناس.

والطبرى - رحمه الله - يستبعد هذه القراءة، ويقطع بفسادها؛ معللا ذلك بقوله: وهذا معنى إذا وجّه القارئ قراءته على ما وصفنا إليه، خارج عن معانى أهل التأويل، وما وجه إليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، تأويل الآية[5].

وسبق ابن قتيبة الطبرى فى هذا، إذ يقول: لا وجه للولاية هنا، إنما تلووا، بواوين من ليّك فى الشهادة وميلك إلى أحد الخصمين عن الآخر، قال الله عز وجل ﴿يَلْوُۥنَ

---

(١) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٥٢ .

(٢) تفسير القرطبى ٣ / ١٩٧٣ - وتفسير الطبرى ٩ / ٢٧٩ .

(٣) النشر فى القراءات العشر ٢ / ٢٥٢ .

(٤) السبعة فى القراءات. لابن مجاهد / ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٥) تفسير الطبرى ٣١٠/٩

أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴿٧٨﴾﴾[1]. والقراءة صحيحة، ولا وجه لمن يعترض عليها لأنها متواترة عن النبى ﷺ.

قال ابن منظور: تلوا الشهادة فتقيموها أو تعرضوا عنها[2]. والمسلمون أمام تواتر القراءتين وصحة معناهما يأخذون بهما على السواء.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٤٥].

قرأ الكوفيون باسكان الراء فى قوله ﴿ٱلدَّرْكِ﴾ وقرأ الباقون بفتحها[3]. والدرْك، والدرَك (بسكون وفتح) أقصى قعر الشىء، والدرك الأسفل فى جهنم - نعوذ بالله منها - أقصى قعرها، والجمع أدراك، ودركات النار: منازل أهلها، والنار دركات والجنة درجات، والدرك إلى أسفل، والدرج إلى فوق، والدرْك بالتسكين لغة فى الدرك وحديث ابن عباس أنه قال للنبى ﷺ: أما كان ينفع عمك ما كان يصنع بك؟. كان يحفظك. ويحدُب عليك. فقال: لقد أُخرج بسببى من أسفل درك من النار، فهو فى ضحضاح من النار ما يظن أن أحدا أشد عذابا منه، وما فى النار أهون عذابا منه[4].

قول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى ٱلسَّبْتِ ﴿١٥٤﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٥٤].

قرأ ورش (لا تَعدُّوا) بفتح العين وتشديد الدال؛ لأن أصلها (تعتدوا) فنقلت حركة التاء للعين ثم أدغمت التاء فى الدال[5]. وقرأ أبو جعفر، وقالون فى أحد وجهيه (تعدُّوا) بإسكان العين وتشديد الدال لأن أصلها (تعتدوا) فأدغمت التاء فى الدال.

والوجه الثانى لقالون؛ اختلاس فتحة العين مع تشديد الدال. وقرأ الباقون (تعدوا) بإسكان العين وتخفيف الدال، مضارع عدا يعدو، كغزا يغزو. فمن قرأ بتخفيف العين فهى من قول القائل: عدوت فى الأمر، إذا تجاوزت الحق فيه.

قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٦٣].

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / ٦٢ .

(٢) لسان العرب، مادة: (ل وى)

(٣) النشر فى القراءات العشر - ٢ / ٢٥٣ .

(٤) لسان العرب - مادة (درك) ٢ / ١٣٦٥ .

(٥) النشر فى القراءات العشر - ٢ / ٢٥٣ .

قـرأ حمزة وخلف (زُبورا) بضم الـزاى. وقرأ الباقون بفتحها. فمن قرأ بالضم فهو على جمـع (زَبْر) كأنهم وجهوا تأويلـه: وآتينا داود كتبا وصحفاً مزبـورة؛ من قولهم: زَبَرْتُ الكتـابَ أَزْبُرُه زَبْرا، وزبرته أزبره زبرا إذا كتبتـه. ومن قرأ بالفتح فعلى التوحيد، وتصير بمعنى: وآتينا داود الكتاب المسمى (زبورا)[1].

❑❑❑

(١) تفسير الطبرى ٩ / ٤٠١ – وتفسير القرطبى ٣ / ٢٠١٣ .

الفصل الثالث

موضوعات السورة

جدول إحصائى بموضوعات سورة النساء:

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
١	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ	عقيدة...
٢	وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ	يتامى...
٣	وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ	نساء اليتامى..
٤	وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً	نساء (صداق)..
٥	وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ	يتامى وسفهاء..
٦	وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ	يتامى..
٧	لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ	مواريث..
٨	وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ	إحسان إلى اليتامى..
٩	وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟	إحسان إلى اليتامى..
١٠	إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا	جزاء آكل مال اليتيم..
١١	يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ	مواريث؛ بيان الأنصبة..
١٢	وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ	مواريث..
١٣	تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ	عقيدة..
١٤	وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ	عقيدة..
١٥	وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ	نساء..
١٦	وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ	نساء..
١٧	إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ	عقيدة..
١٨	فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا	نساء..
١٩	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ	نساء..

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
٢٠	وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ	نساء..
٢١	وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ	نساء..
٢٢	وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ	حرمة نكاح زوجة الأب..
٢٣	حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ	نساء؛ ذكر المحرمات..
٢٤	وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ	نساء..
٢٥	وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ	نساء.. نكاح الإماء..
٢٦	يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ	رحمة الله بعباده..
٢٧	وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ	رحمة الله بعباده..
٢٨	يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ	رحمة الله بعباده..
٢٩	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم	معاملات..
٣٠	وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا	معاملات..
٣١	إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ	عقيدة..
٣٢	وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ	نساء. مساواتهن في العمل
٣٣	وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ	مواريث..
٣٤	ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ	نساء.. قوامة الشقاق..
٣٥	وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا	نساء.. علاج الشقاق..
٣٦	وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا	عقيدة..
٣٧	ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ	في اليهود..
٣٨	وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ	في اليهود..
٣٩	وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ	في اليهود
٤٠	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ	عقيدة..
٤١	فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ	عقيدة..

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
٤٢	يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ	عقيدة..
٤٣	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ	عبادات..
٤٤	أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ	فى اليهود..
٤٥	وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ	فى اليهود..
٤٦	مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ	فى اليهود..
٤٧	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ	فى اليهود..
٤٨	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ	فى العقيدة..
٤٩	أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم	فى اليهود..
٥٠	ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ	فى اليهود..
٥١	أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ	فى اليهود..
٥٢	أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ	فى اليهود..
٥٣	أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ	فى اليهود..
٥٤	أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ	فى اليهود..
٥٥	فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ	فى اليهود..
٥٦	إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا	عقيدة..
٥٧	وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ	عقيدة..
٥٨	إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا	أخلاق..
٥٩	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ	عقيدة..
٦٠	أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟	فى المنافقين..
٦١	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ	فى المنافقين..
٦٢	فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ	فى المنافقين..
٦٣	أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ	فى المنافقين..

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
٦٤	وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ	فى المنافقين..
٦٥	فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ	فى المنافقين (عقيدة).
٦٦	وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ	فى المنافقين..
٦٧	وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا	فى المنافقين..
٦٨	وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا	فى المنافقين..
٦٩	وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ	عقيدة فى سياق المنافقين..
٧٠	ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِ	عقيدة فى سياق المنافقين..
٧١	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ	فى الجهاد..
٧٢	وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ	تخلف المنافقين عن الجهاد
٧٣	وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ	حرص المنافقين..
٧٤	فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ	جهاد..
٧٥	وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ	جهاد..
٧٦	ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ	جهاد..
٧٧	أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ	فى المنافقين..
٧٨	أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ	فى المنافقين..
٧٩	مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ	عقيدة فى سياق المنافقين..
٨٠	مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ	عقيدة..
٨١	وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ	فى المنافقين..
٨٢	أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ	فى المنافقين..
٨٣	وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ	فى المنافقين..
٨٤	فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ	فى الجهاد..
٨٥	مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً	فى سياق المنافقين..

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
٨٦	وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا	أخلاق..
٨٧	اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ	عقيدة..
٨٨	فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ	فى المنافقين..
٨٩	وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا	فى المنافقين..
٩٠	إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ	فى المنافقين..
٩١	سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ	فى المنافقين..
٩٢	وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً	فى القتل الخطأ..
٩٣	وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا	فى القتل العمد..
٩٤	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ	فى الجهاد..
٩٥	لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ	فى الجهاد..
٩٦	دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً	فى الجهاد..
٩٧	إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ	فى الهجرة من دار الحرب
٩٨	إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ	فى الهجرة من دار الحرب
٩٩	فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ	فى الهجرة من دار الحرب
١٠٠	وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	فى الهجرة من دار الحرب
١٠١	وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ	صلاة القصر..
١٠٢	وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ	فى صلاة الخوف..
١٠٣	فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ	فى ذكر الله..
١٠٤	وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ	فى الجهاد..
١٠٥	إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ	عقيدة فى سياق المنافقين.
١٠٦	وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا	عقيدة فى سياق المنافقين.
١٠٧	وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ	فى سياق المنافقين..

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
١٠٨	يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ	فى سياق المنافقين..
١٠٩	هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا	فى سياق المنافقين..
١١٠	وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ	فى سياق المنافقين..
١١١	وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ	فى سياق المنافقين..
١١٢	وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا	فى سياق المنافقين..
١١٣	وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ	فى المنافقين..
١١٤	لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ	أخلاق..
١١٥	وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ	فى العقيدة..
١١٦	إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ	عقيدة..
١١٧	إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا	عقيدة..
١١٨	لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ	عقيدة..
١١٩	وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ	عقيدة..
١٢٠	يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا	عقيدة..
١٢١	أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ	عقيدة..
١٢٢	وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ	عقيدة..
١٢٣	لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ	عقيدة..
١٢٤	وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ	عقيدة..
١٢٥	وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ	عقيدة..
١٢٦	وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ	عقيدة..
١٢٧	وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ	فى النساء..
١٢٨	وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا	نساء (خوف نشوز الزوج)
١٢٩	وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ	فى النساء والعدل بينهن.

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
١٣٠	وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ	فى النساء..
١٣١	وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ	عقيدة..
١٣٢	وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا	عقيدة..
١٣٣	إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ	عقيدة..
١٣٤	مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا	عقيدة..
١٣٥	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ	أخلاق..
١٣٦	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ	عقيدة..
١٣٧	إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟	فى المنافقين..
١٣٨	بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا	فى المنافقين..
١٣٩	ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ	فى المنافقين..
١٤٠	وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ	فى سياق المنافقين..
١٤١	ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ	فى المنافقين..
١٤٢	إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ	فى المنافقين..
١٤٣	مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ	فى المنافقين..
١٤٤	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ	فى المنافقين..
١٤٥	إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ	بيان جزاء المنافقين.
١٤٦	إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ	استثناء من المنافقين.
١٤٧	مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ	فى سياق المنافقين.
١٤٨	لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ	أخلاق..
١٤٩	إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ	أخلاق..
١٥٠	إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ	فى أهل الكتاب..
١٥١	أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا	فى أهل الكتاب..

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
١٥٢	وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟	عقيدة..
١٥٣	يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا	فى اليهود..
١٥٤	وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ	فى اليهود..
١٥٥	فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ	فى اليهود..
١٥٦	وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا	فى اليهود..
١٥٧	وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ	فى اليهود..
١٥٨	بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا	فى سياق اليهود..
١٥٩	وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ	فى النصارى..
١٦٠	فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ	فى اليهود..
١٦١	وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ	فى اليهود..
١٦٢	لَـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ	فى مؤمنى اليهود..
١٦٣	إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ	عقيدة..
١٦٤	وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ	عقيدة..
١٦٥	رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ	عقيدة..
١٦٦	لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ	عقيدة..
١٦٧	إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ	فى الكافرين..
١٦٨	إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ	فى الكافرين..
١٦٩	إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا	فى الكافرين..
١٧٠	يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ	عقيدة..
١٧١	يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ	فى النصارى..
١٧٢	لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ	فى النصارى..
١٧٣	فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ	عقيدة..

رقم الآية	نصهـــا	موضوعها
١٧٤	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ	عقيدة..
١٧٥	فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ	عقيدة..
١٧٦	يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ	مواريث..

العقيدة وتأسيس موضوعات السورة عليها:

أول موضوعات السورة العقيدة، وإذا كانت العقيدة فى السور المكية للتأسيس فإنها فى السور المدنية – وسورة النساء واحدة منها – للتذكير، بحيث تُعالج موضوعات هذه السورة من خلالها لتوجد رباطاً وثيقاً بين التشريعات والتنظيمات والعادات والمعاملات، ليتكون فى النهاية أصل الدين وحدّ الإيمان.

وأى تنظيم أو تشريع يقوم بمعزل عن العقيدة، يفقده روحه ويحوله إلى نظام تقوم عليه الدولة وتحرسه التنظيمات.

وحين ترتبط التنظيمات والتشريعات بالعقيدة، وتقوم على أساسها، تصبح العقيدة هى الحارس الأمين عليها، ويصبح الخروج عن هذه التنظيمات، لا يشكل خطراً على الوجود الإنسانى فحسب، ولكن يهدد عقائد الناس ودياناتهم[1].

ومن خلال الجدول الموضح لموضوعات سورة النساء نجد أن سبعًا وأربعين آية – تقريباً – كلها فى العقيدة، وكانت أول آية فى السورة تدعو إلى تقوى الله الذى خلقنا من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، ثم كان العمران فى الكون بأن بث منهما رجالاً كثيراً ونساء.

وبعد آيات المواريث يبين الله أن ذلك من حدوده ؛ فمن أطاعه فى التزام حُكمه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٣] و ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٤]. ويفتح الله باب التوبة على مصراعيه للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فهو عليم بهم وبما تكنه صدورهم. لكنه لا يقبل توبة العاصين، الذين لا يتذكرون التوبة إلا عند حضور الموت ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(١) دراسات قرآنية – محمد قطب ٢٦٦.

[سورة النساء – الآية ١٧] و ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٨]..

ومن رحمة الله بعباده أنه يكفر عنهم سيئاتهم ما اجتنبوا الكبائر ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٣١].

وتعود السورة إلى الأمر بطاعة الله، وعدم الإشراك به؛ وطاعة الوالدين والأقربين ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٣٦] فتبين السورة أن الله عادل لا يظلم عنده أحد، ويضاعف الحسنات بفضله وكرمه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[سورة النساء – ٤٠] ، وأن الرسول شاهد على أمته كبقية الرسل على أممها ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة النساء – ٤١].

وتدعو السورة– ضمن موضوع العقيدة– إلى طاعة الله وطاعة الرسول وأولى الأمر، وتبين أن الاحتكام فى كل الأمور: يجب أن يكون لله وللرسول وذلك من علامات الإيمان المطلق بالله واليوم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٥٩].

ومن ذلك يفهم أن طاعة أولى الأمر يجب أن تكون قائمة على طاعة الله وطاعة الرسول، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ومن ثم فقد كرر الفعل (أطيعوا) لله وللرسول، ولم يكرر مع أولى الأمر.

وتبين السورة مكانة الطائعين؛ فهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الإنسان يستطيع أن يرقى بعمله إلى أعلى المراتب فضلاً من الله وكرما.

وتبين السورة أن من علامات الإيمان الصحيح: الاحتكام إلى الرسول والتسليم له فى كل أمر ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٦٥].

وفى موضعين منها تبين السورة أن الشرك جريمة لا تغتفر. وما دونه يدخل فى رحمة الله وغفرانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١١٦].

وتنعى السورة على أهل الكتاب - ضمن موضوع العقيدة - الغُلوّ فى دينهم، وبطلان دعوتهم فى تأليه المسيح أو جعله ابن الله؛ والله واحد لا شريك له، وما المسيح إلا عبد من عباد الله اصطفاه لتبليغ رسالته... ولن يستنكف المسيح أن يحظى بشرف تلك العبودية ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٧١]. و﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٧٢].

وتبين السورة أن محمداً ﷺ أوحى إليه كبقية الأنبياء وليس بدعاً من الرسل، وأن رسل الله لا ينحصرون فيمن ورد ذكرهم فى القرآن، ولكن هناك أنبياء ورسل لم يرد لهم ذكر فى القرآن ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [سورة النساء - الآيات ١٦٣ - ١٦٤].

ويكتمل حديث العقيدة فى سورة النساء بذكر يوم القيامة، فتبين السورة أن الله عادل لا يظلم عنده أحد، وأن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة النساء - الآيات ٤٠ - ٤١].

روى البخارى عن عبدالله ابن مسعود قال: قال لى النبى ﷺ: اقرأ علىّ. قلت أأقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإنى أحب أن أسمعه من غيرى. فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى بلغتُ «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» قال: أمسك. فإذا عيناه تذرفان[1].

---

(١) صحيح البخارى ٦/ ٥٧.

اهتمام السورة بالمرأة:

ومن الموضوعات الرئيسية فى السورة موضوع (النساء) والتى سميت السورة به تكريماً للمرأة، ورفعاً لشأنها.

وفى ثلاث وعشرين آية - كما هو موضح بالجدول - جرى ذكر النساء والمرأة ومعالجة أمورهن، وحقوق اليتيمات فى حجر الأولياء، واهتمت السورة بحقهن فى الكسب والزواج، ونهت الأوصياء أن يتعسفوا معهن.

تبدأ الآية الأولى بتكريم المرأة وتعظيم شأنها، وتبين أنها الأساس فى وجود الإنسان. واهتمام السورة إلى هذا الحد بأمر النساء واليتامى، يقطع بأن هذه الفئات كانت مستذلة مستضعفة فى مجتمع جائر ظالم، وأن أوضاعاً غير كريمة قد لحقت بهم. وأن السورة تعمل جاهدة على رسم الخط الصحيح والمنهج الواضح فى معاملة تلك الفئات...

فلقد كان الأوصياء يخلطون أموالهم بأموال اليتامى، ويستبدلون الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى، ويقولون: اسم باسم، ورأس برأس. فنهاهم الله عن ذلك وبيّن لهم خطورة فعلهم: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٢].

ويتامى النساء أشد ضعفاً وأحوج إلى الرحمة والعطف، وهن أكثر إهانة فى المجتمع الجاهلى؛ فالأوصياء يحتجزونهن لأنفسهم؛ لما لهن من مال أو جمال، ويفرض الوصى نفسه زوجاً على اليتيمة، رضيت أم كرهت، بل يتزوجها بلا مهر وينتفع بمالها وأحياناً لا يتزوجها لدمامتها، ويمنعها من الزواج لمالها. وكان الرجل منهم يتزوج الأربع والخمس والست والعشر ويقول: ما يمنعنى كما يتزوج فلان؟ فإذا فنى ماله، مال إلى مالِ اليتيم الذى فى حجره فأنفقه.

من أجل ذلك كله نادت السورة مجتمع المسلمين أن يقسطوا فى اليتامى، وأن يحافظوا على أموالهم، وينمّوها لهم؛ فيكون رزق اليتامى من عائد المال، لامن رأس المال. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ

أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [سورة النساء - الآيات ٥ - ٦].

وبذلك تأمر الآية الأوصياء بأن يقوموا بإجراء اختبار بين الحين والحين على اليتامى، لمعرفة مدى قدرتهم على تحمل تبعاتهم حتى يردوا إليهم أموالهم حينما يأنسوا رشداً منهم.

وتذكّر السورة أوصياء اليتامى بأن الإنسان كما يدين يدان، وأن إحسانه إلى اليتامى وبره بهم هو خير ما يتركه لأولاده من بعده؛ ليطمئن على حياتهم بعده ؛ ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٩].

وتبين السورة - فى مشهد حِسّى مخيف - عاقبة من يأكل مال اليتيم ظلماً بأنه لا يأكل إلا النار، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٠].

والمرأة نوع مستضعف آخر فى المجتمع الجاهلى؛ انتشلتها السورة من عسف هذا المجتمع وجَوْره؛ فلقد كان المجتمع الجاهلى يضع المرأة موضعاً غير كريم، فحرمها الميراث أو حبسها لما ينالها منه. ويرثها الرجل كالمتاع، فإذا مات الزوج، جاء وليّه فألقى عليها ثوبه، فيُعرف أنها محجوزة له؛ إن شاء تزوجها من غير مهر واستقل بمالها، وإن شاء عضلها؛ فيدعها لا هى زوجة ولا هى مطلقة، حتى تفتدى منه نفسها وتفك أسرها، ويُطَفِّف معها الكيل؛ بل إن من المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث.

ويسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد، وأن يتصل بالمرأة بصورة حيوانية هابطة؛ روى البخارى عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته: أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا طهرت من طمسها - أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها. فإذا

حملت ووضعت ومرّ عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان؛ تسمّى من أحبت باسمه فيَلْحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع عمن جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جُمعوا لها ودَعُوا لها القَافة[1]، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالْتاط به[2] ودُعى ابنه لا يمتنع عن ذلك[3].

تلك هى الصورة المذرية، والحالة السيئة التى كانت عليها المرأة فى المجتمع الجاهلى. ومن ثم فإن السورة عملت جاهدة على رفع شأنها، وحفظ كرامتها؛ فدعت إلى تعدد الزوجات صوناً لعفافها، ووقاية لها من العلاقات المهينة بالرجل بالمصادقة أو المخادنة، وقيدت التعدد بأربع، واشترطت العدل بينهم، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٣].

والعدل الذى تعنيه السورة عدل فى القسمة وفى النفقة، أما العدل فى المشاعر والحب فلا يطالب به أحد لأنه خارج عن إرادته، وقد وضّحته السورة فى قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٢٩].

وفى إطار تكريم المرأة تأمر السورة الأزواج أن يعطوا نساءهم صداقهن كاملاً حال استبدال زوج مكان زوج، ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة النساء - الآيات ٢٠ - ٢١].

---

(١) القافة: جمع؛ مفردها قائف؛ وهو الذى يتتبع الآثار ويعرفها، ويعرف شَبَه الرجل بأخيه وأبيه.

(٢) التاط به: التصق به.

(٣) صحيح البخارى ٣/ ١٩.

والسورة تقرر أن للمرأة حقاً في الميراث بل إنها لتجعل هذا الحق هو المكيال الذى يورث الذكر على أساسه، ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١١].

ونصفها المقرر فى الميراث ليس انتقاصاً لحقها ولا غبنا لها، بل هو عدل الله المطلق؛ فالرجل يتزوج المرأة وهو الذى يقوم بإعالتها، أما هى فإما أن تقوم بنفسها فقط - إن لم يكن لها زوج - وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده؛ ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغُنْم والغُرْم فى هذا التوزيع الحكيم.

ويبدو كل كلام فى هذا التوزيع جهالة من ناحية، وسوء أدب مع الله من ناحية أخرى، وزعزعة للنظام الاجتماعى والأُسَرى لا تستقيم معه الحياة.

فالمساواة بين الرجل والمرأة حقيقة ثابتة أرسى الإسلام دعائمها، وليس المال الذى لم يبذل فيه جهد مقياساً لهذه المساواة.

والسورة تقرر أن العمل والقيام بأعباء التكليف أساس ذلك كله، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٣٢].

والمرأة داخل الأسرة موضع الاهتمام من السورة إذ أحاطتها بسياج منيع من الاحترام والتقدير، ووثّقت بينها وبين الزوج روابط قوية، وعلاقات راسخة من الحب والعطف؛ ولاحقت بوادر الجفاء بينهما بالعلاج السريع حفاظاً على هذه الروابط القوية؛ فإذا كَره الرجل زوجته لسبب من الأسباب فعليه أن يصبر على ذلك، ربما جعل الله الخير الكثير فى هذا الصبر ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٩].

وإذا تعذرت الحياة بين الرجل وزوجه، فعليه أن يفارقها بالمعروف من غير إضرار بها، أو انتقاص لحقها، ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة النساء - الآيات ٢٠ - ٢١].

ولفظ (قنطار) يبين مدى اهتمام الله سبحانه وتعالى بحق المرأة مهما غلا؛ وذلك صوناً لها من غوائل الزمن وحفظاً لها أن تُمْتَهَن.

إنه ميثاق النكاح وهو ميثاق لا يستهان به، فهو بسم الله وعلى سنة رسول الله ﷺ.

ونلحظ من الآيتين الأخيرتين – هنا – أن السورة لا تستريح لتعطيل وظيفة الأسرة في المجتمع فتبدأ الآية العشرون بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ...﴾ فمكان الزوجة يجب ألا يكون خالياً بأى حال من الأحوال؛ فإذا حدث ما يجعل الزوج يفارق زوجه، فليملأ مكانها على الفور، ولذا استخدمت السورة لفظ (استبدال) حتى لا تتعطل وظيفة الأسرة لأى سبب من الأسباب.

والرجل قوّام على المرأة داخل الأسرة لدواع تستوجبها طبيعته؛ فهو الذى ينفق على الأسرة ويسعى لتحقيق سعادتها، ولابد للأسرة من قوامة، وبدونها يتفكك عمل الأسرة، والمرأة لا تصلح لتلك القوامة لظروف تكوينها، وقد أثبتت التجارب أن الأسر التى تقوم المرأة عليها، فاشلة محطمة، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٣٤].

وأثناء مباشرة الرجل للقوامة قد تنشز المرأة لما قد تراه فى نفسها من دواع لذلك، فقد تكون ذات مال أو على قدر من الجمال أو الجاه. وهنا ترسم السورة الخط الصحيح لمعالجة النشوز فتأمر الرجل بأن يبدأ بموعظتها بالحسنى، ولكنها قد تتمادى ولا تستجيب، فهواها غالب، وانفعالها جامح، واستعلاؤها لا تنفع معه الموعظة... فتأتى المرحلة التالية من مراحل تأديبها بهجرها فى المضجع فهو موقع التدلل، ومجال الاستعلاء بالجمال والكبرياء، فإذا هُزمت فى هذا المجال فقد استقامت الحياة، وإلا فإن على الرجل أن يُقْدم إلى خطوة أخرى؛ وهى الضرب برفق فلا يمس الوجه، ولا يكسر العظم، فربما كان من النساء من لا تُحِسّ قوة الرجل الذى تحب نفسها أن تجعله قيّماً عليها وترضى به زوجاً إلا حين يقهرها عضلياً[1].

ليست هذه طبيعة كل امرأة، ولكن هذا الصنف من النساء موجود، وهو الذى قد يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة، ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٣٤].

وحين لا تحقق الخطوات السابقة الغرض المرجوّ، فإن على الجماعة الإسلامية أن تختار حكمين؛ من أهلها ومن أهله، فى محاولة منهم للتوفيق بين الزوجين: ﴿وَإِنْ

(١) فى ظلال القرآن. سيد قطب. ٢/ ١٥٤

خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٣٥]. وانظر إلى قول الله - تعالى - ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ أى إنه لابد أن تتوفر النية المخلصة لدى الحكمين فى الإصلاح؛ حتى يحقق الله على أيديهما الصلح.

أما حين يكون النشوز من الزوج لكبر سن زوجته، أو لدمامة خَلْقها مثلاً، فعلى الزوجة - والحالة هذه - أن تبادر بمعالجة ذلك فى زوجها، وتعمل جاهدة على إرضائه بأى حال من الأحوال؛ كأن تتنازل له عن بعض حقوقها الزوجية؛ لتُرضى خاطره، وتُلين قلبه، وعليها أن تتحسس مصدر غضبه؛ فإذا كان يحب أخرى، وهواه إليها أكثر من غيرها، عليها أن تتنازل عن ليلتها لمن أحب، وإذا كان بسبب مال، تنازلت عن بعض نفقتها أو كسوتها لاستعطافه وكسب مودته؛ روى ابن جرير عن عائشة قالت: فى قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٢٨] هذا فى المرأة تكون عند الرجل فلعله أن يستكبر سنها ولا يكون لها ولد ويكون لها صحبة فتقول لا تطلقنى وأنت فى حل من شأنى[1].

ولم تهمل السورة مكانة المرأة فى المجتمع المسلم واهتمامه بها، فإذا ربّى المجتمع المرأة على الطهر والعفاف، كان مجتمعاً فاضلاً، وإن ترك المرأة وشأنها، كانت سبباً فى شقائه وبلائه. وما أصيبت مجتمعاتنا اليوم إلا بسبب المرأة التى تُركت وشأنها، وسمح لها بالظهور على شاشات الفضائيات عارية مبتذلة، فأصابت شبابنا بالخنوع والضعف، وصُرِّح لها بالمنظمات النسائية، التى تطالب بحقوق المرأة وتدعى - إفكاً وبهتاناً - أنها مهضومة الحقوق مسلوبة الإرادة، وترى أن ترك الحبل على الغارب لها دون قيد من دين أو أعراف هو حق أصيل لها مقلدة - بذلك - المرأة الأوربية بكل ما وصلت إليه من حقوق مزعومة وفتن مهلكة. ولن تنجو المجتمعات المسلمة إلا إذا اعتزت المرأة بدينها، وتمسكت بكتاب ربها؛ منهجا وسلوكا لها فى حياتها.

ومن ثم فإن السورة تأمر المجتمع المسلم بعزل المرأة التى ترتكب الفاحشة لعدم انتشار هذا الداء واستشرائه فى أوصاله ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ

(١) تفسير الطبرى ٩/ ٢٧٠

أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٥]. وكان ذلك قبل نزول حد الزنا فى سورة النور.

اهتمام السورة بالمجتمع المسلم:

وفى إطار علاج السورة لأوضاع المجتمع فإنها نهت عن أكل الأموال بالباطل عن طريق الرشوة والغصب والربا، وأشباه ذلك إلا ما كان عن طريق التجارة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٢٩].

فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك، وهى خدمة للطرفين، وانتفاع عن طريق هذه الخدمة، انتفاع يعتمد على المهارة والجهد، ويتعرض للربح والخسارة. أما الربا الذى يظن بعض الناس أنه لون من ألوان التجارة فإنه إثقال للتجارة وإثقال للمستهلك.

والأخلاق فى كل مجتمع قضية خطيرة، تشغل بال المفكرين والمصلحين والقادة، ومقاييسها متفاوتة بين المجتمعات فى الوقت الراهن، وأما المجتمع المسلم فإن أخلاقه مستمدة من القرآن، وقد تناولت السورة هذا الأمر بما يكفل حياة طيبة مستقرة للمجتمع المسلم.

وفى سبع آيات فى السورة تحددت المعالم البارزة للأخلاق الفاضلة. ورسمت السورة الطريق الصحيح للمجتمع المسلم بتلك الأخلاق.

وفى تصورى أن السورة بدأت موضوع الأخلاق بهذه الآية الكريمة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة النساء - الآية ٥٨].

فالأمانة كلمة جامعة لكل معانى الخير والإصلاح فى المجتمع، بدءاً بالأمانة الكبرى، وهى الإيمان بالله تعالى، وإقامة منهجه فى الأرض، إلى ما يترتب على ذلك من الأمانات الأخرى لحفظ الودائع، والنصح للمسلمين، وأداء العمل على أكمل وجه، إلى غير ذلك من أنواع الأمانة.

والأمانة التى يأمرنا بها الإسلام أمانة جامعة شاملة، ومع كل الناس، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، وقد أشارت السورة إلى ذلك (بين الناس) إذ الحكم بالعدل أمانة أيضاً.

وواجب المسلم أن يرعى حق أخيه، ويسعى لمصلحته، ولا ينتظر على ذلك أجراً منه

أو شكراً، وأما الذى يسعى إلى الشر، وإلحاق الضرر بالآخرين، فعليه من الوزر بمثل ما قدم، ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٨٥].

وأفراد المجتمع المسلم يتميزون عن غيرهم فى معاملاتهم بعضهم مع بعض، وفى لقاء كل منهم بأخيه، يجب على كل مسلم أن يحيّى أخاه إذا قابله بتحية الإسلام؛ لتقوية روابط المحبة والألفة بينهم، ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٨٦].

وكل نجوى بينهم لا خير فيها؛ إن لم تدع إلى المعروف أو إصلاح بين أفراد المجتمع المسلم، ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١١٤].

والسورة تربى الجماعة الإسلامية تربية فاضلة؛ تؤهلها لقيادة البشرية، فيجب عليها - والحالة هذه - أن تقيم دعائم العدل، غير متأثرة بعاطفة أيا كانت، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٣٥]. إلى غير ذلك مما تناولته السورة من موضوع الأخلاق.

تأمين سلامة المجتمع المسلم فى سورة النساء:

وأعداء المجتمع المسلم شر مستطير، وخطر داهم يهدد الجماعة الإسلامية، وهم فى الداخل (المنافقون) وفى الخارج (أهل الكتاب والمشركون).

وقد عملت السورة جاهدة على تأمين سلامة الجبهة الداخلية لجماعة المسلمين؛ بكشف خداع المنافقين ومكرهم، وحذرت المسلمين ممن يتربصون بهم فى الخارج. وحديث السورة عن هؤلاء الأعداء امتداد لحديث شقيقتيها (البقرة وآل عمران) فى هذا المجال.

وباستقصاء الآيات التى تحدثت عن المنافقين فى السورة وجدتُ أنها تقرب من سبع وثلاثين آية، والآيات التى تناولت أعداء المجتمع المسلم فى الخارج زادت على خمس

وعشرين آية، وقد بينتُ ذلك فى الجدول المصدر به الفصل.

المنافقون وكشف خباياهم:

فالمنافقون أشد خطراً من أى عدو آخر؛ فهم يُظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، والله عالم بطبيعتهم، خبير بأحوالهم؛ فهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول، ومع ذلك فإنهم يتحاكمون إلى الطاغوت، فإذا دُعوا إلى ما أنزل الله، صدوا عن النبى وعارضوه، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٦٠].

والمنافقون – كما قلت – يظهرون خلاف ما يبطنون، وتلك أخس صفاتهم، فإذا كانوا مع الرسول، أظهروا له النوايا الطيبة، وأعلنوا له الطاعة والولاء، وإذا خرجوا من عنده، فإنهم يبيتون العداوة والبغضاء، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٨١].

والمنافقون لا يتدبرون القرآن ولو فعلوا لتجلت لهم الحقيقة واضحة جلية؛ وهى أن القرآن كلام الله، ومن عنده، إذ لو كان من عند غيره، لما وقع بهذا الإتقان المحكم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٨٢].

وهم يشيعون الأكاذيب عن المؤمنين، ويرددون أخباراً مفتراة عن هزيمتهم، ولو تروّوا قليلاً وردوا الأمر إلى الرسول، وإلى كبار الصحابة لوقفوا على حقيقة الأمر، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٨٣].

ورغبة المنافقين مُلِحّة فى تكفير المؤمنين ككفرهم، حتى يتساووا بهم. والسورة تبين ذلك للمؤمنين، وتحذرهم ألا يتخذوا من الكافرين أولياء، فمن المحال أن يخلص المنافق للمؤمن مهما كانت الظروف؛ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن

تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [سورة النساء - الآيات ٨٨ - ٨٩].

وكيف يتخذ المؤمن من المنافق الكافر ولياً؛ والمنافق لا يثق بالمؤمن ولا يتخذه كذلك، بل إنه ليفضل أن يتخذ وليه من الكافرين أمثالهم. ومن ثم فإن السورة تأمر المؤمن ألا يجالس المنافق؛ لأنه يستهزئ بكلام الله، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [سورة النساء - الآيات ١٣٩ - ١٤٠].

والمنافقون يتمنون زوال الجماعة الإسلامية وفناء دولتهم، فلا يشاركون المسلمين حروبهم، ويدّعون المشاركة عندما يكتب الله النصر للمسلمين، أما إذا حدث غير ذلك، فالمنافقون يظهرون النصح والإرشاد لأعدائهم، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٤١].

والمنافقون يظنون - بأعمالهم الخسيسة هذه - أنهم يخدعون المؤمنين ويخدعون ربهم؛ إذ يتخلفون من الصلاة التي لا يراهم الناس فيها؛ كصلاة العشاء وصلاة الصبح، والله لا يخادع، وهو عليم بما يفعلون، خبير بما يبطنون، ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٤٢].

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين الصبح والعشاء».

والمنافقون مذبذبون بين الإيمان والكفر؛ ومن ثم فإنهم يستحقون أشد ألوان العقاب وأنكى صنوف الجحيم وهذا ما توعدتهم به السورة، ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٣٨].

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ١٤٥].

اليهود وخطرهم على المجتمع المسلم:

واليهود أعداء المجتمع المسلم فى الخارج، وهم يعيشون مع المسلمين، وكذلك النصارى، والمشركون فى مكة يناصبون المسلمين العداء.

وقد لاحظتُ فى السورة أن الآيات التى تحدثت عن المنافقين وأهل الكتاب جاءت فى مجموعات منها:

الآيات: ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ تحدثت عن شدة بخل اليهود، باعتبار ما عندهم من علم بنبوة محمد وصفته، ومع ذلك فإنهم بخلوا بالاعتراف به، وبنبوته، وكتموا علمهم بذلك.

كما بخلوا بإنفاق المال فى وجوهه المشروعة، وحتى إذا أنفقوا مالهم فللمراءاة والسمعة، وذلك من أخس صفاتهم؛ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٣٧] وقد بينت السورة أن الله قد أنزل التوراة على موسى بقصد هداية اليهود، ولكنهم تركوا ذلك واشتروا الضلالة بالهدى؛ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٤٤]. ولا يكتفون بذلك بل إنهم يريدون إضلال المسلمين كما ضلوا، ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٤٤].

واليهود - عليهم اللعائن إلى يوم القيامة- يحرفون الكلم عن قصده، للزيغ والتضليل، ويستهزئون بالنبى ﷺ، ويدْعون عليه؛ لحقدهم الشديد، «واسمع غير مسمع» أى لا سمعت ويحدثونه بكلمات تحتمل وجهين: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٤٦].

والسورة تُذَكِّر اليهود - فى مشهد مخيف - بما حدث لأسلافهم من الطمس والمسخ، وجعْلهم قردة وخنازير؛ ليثوبوا إلى رشدهم، ويؤمنوا بالرسالة الإسلامية؛ وإلا حلّ بهم ما حلّ بأسلافهم من قبل، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم

مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٤٧].

وطمس الوجوه؛ إزالة معالمها المميزة لآدميتها وردها على أدبارها. ودفعها لأن تمشى القهقرى. وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه العادى، والذى يفقدهم آدميتهم، ويردهم يمشون على أدبارهم.

واليهود مكابرون، لا يعترفون بخطئهم، ولا يكفون عن أفعالهم الخسيسة. وهم بين الحين والحين يثنون على أنفسهم، ويُمجِّدون قدراتهم. فيظنون - كذباً - أنهم خير خلق الله، وإلى اليوم يسمون أنفسهم شعب الله المختار، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [سورة المائدة - الآية ١٨] وقالوا أيضاً: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [سورة البقرة - الآية ١١١] ولكن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى صدورهم، وهو الذى يزكى من يشاء، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة النساء - الآيات ٤٩ - ٥٠].

وتنعى السورة على اليهود إيمانهم بالجبت والطاغوت، وهم أهل كتاب سماوى؛ فيه خيرهم وفلاحهم وهداهم. وهم يزيفون الحقائق، وينسجون الأكاذيب لمشركى مكة؛ إذ يوهمونهم بأنهم أهدى من محمد ودينهم أحسن من دينه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة النساء - الآيات ٥١ - ٥٢].

وثمة صفة ذميمة تتملك اليهود، وتسيطر على تصرفاتهم ومشاعرهم، وهى الحسد؛ ولقد حسدوا رسول الله ﷺ على النبوة والرسالة والحكمة، وكانوا يتمنون أن يكون لهم ذلك، ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة النساء - الآية ٥٤].

وبذلك تستنكر السورة على اليهود هذا الحسد، وتلك الضغائن؛ وهم غارقون فى نعم الله وآلائه منذ إبراهيم وآله - عليهم السلام - الذين آتاهم الله الملك والنبوة. ولم يحتفظ

اليهود بهذه النعمة الكبرى فمنهم من آمن ومنهم من كفر ومن يؤت هذا الفضل لا يليق منه الجحود والكفر.

واليهود – لعنهم الله – يفرقون بين أنبياء الله ورسله ويفاضلون بينهم على أسس توافق هواهم؛ فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فلم يؤمنوا بعيسى – عليه السلام – كما لم يؤمن النصارى بمحمد ﷺ. والإيمان الحقيقى يقتضى التصديق بكل ما جاء به الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، ومن رد الإيمان بواحد منهم فليس بمؤمن، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآيات ١٥٠ – ١٥٢].

وكأن هذه المجموعة من الآيات تعالج قضية الإيمان عند أهل الكتاب، بعد أن عالجت مجموعتان من الآيات فى السورة بعض صفات اليهود؛ كالبخل والحسد والتضليل.. الخ.

وتمضى السورة فى وصف أحوال اليهود؛ فتبين أنهم طلبوا من موسى – قبل ذلك – أن يريهم الله جهرة، وعبدوا العجل من دون الله. والآيات توضح للرسول أحوالهم كيلا يتعجب من الأسئلة التى يسألونها له تعنتاً وكفرا: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ [سورة النساء – الآيات ١٥٣ – ١٥٥].

واليهود ارتكبوا أفظع جرم وأشنع خطيئة حين رموا السيدة مريم البتول فى طهرها وعفافها وادّعوا – كذباً – أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم، وكأنهم يفاخرون بذلك. وعيسى لم يُقتل ولم يستطيعوا الوصول إليه، لأن الله حفظه من مكرهم، بل رفعه الله إلى

السماء مطهراً وكان حسد اليهود له لأنه - عليه السلام - كان يُبرئ الأكمه[1] والأبرص ويحى الموتى بإذن الله، وكان عليه السلام لا يساكنهم فى بلد؛ فدسُّوا له لدى ملك دمشق - فى ذلك الوقت - وكان من عَبَدَة الكواكب وقالوا له: إن فى بيت المقدس رجل يضلل الناس ويفسد على الملك رعاياه، فكتب الملك إلى نائبه فى بيت المقدس بقتل هذا الرجل وصلبه للتخلص منه.

وذهب نائب الملك ومعه طائفة من اليهود لتنفيذ الحكم فى عيسى عليه السلام، فلما عرف ما سيحل به قال لأصحابه: أيكم يُلقى عليه شبَهِى وهو رفيقى فى الجنة؟. فانتدب لذلك شاب منهم. فقال: أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت (رَوْزَنة)[2] فى سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنة من النوم فرُفع إلى السماء وهو كذلك. وظن النفر الذين أتوا لقتله، أن الشاب الذى أُلقى عليه شبه عيسى هو عيسى عليه السلام فأخذوه فى الليل، وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه.

وسلم لهم طائفة من النصارى بذلك؛ لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كانوا فى البيت مع عيسى. فإنهم شاهدوا رفعه، وظن باقى النصارى كما ظن اليهود أن المصلوب هو عيسى، والله يقول: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة النساء - الآيات ١٥٧ - ١٥٨].

ولكن هؤلاء الطغاة الذين آمنوا بصلبه وقتله، واتخذوه إلهاً من دون الله، سوف تتكشف لهم الحقيقة جليّة واضحة قبل موتهم، ويعرفون أن عيسى - عليه السلام - نبى الله ورسوله، وليس إلها كما زعموا، وسيشهد عليهم يوم القيامة بما اقترفوا من جرم، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١٥٩].

ولما كان من أمر اليهود ما كان فإن الله - تعالى - عاقبهم بأن حرم عليهم الطيبات التى كانوا يتمتعون بها وقد كانت حلاً لهم، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ

(١) الأكمه: الذى ولد أعمى.

(٢) الروزنة: الفتحة فى سقف البيت

لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [سورة النساء – الآيات ١٦٠ – ١٦١].

النصارى فى سورة النساء:

وتوجّه السورة النداء الحاسم إلى النصارى ألا يفتروا على الله الكذب، وأن يفردوه تعالى بالوحدانية، وأن يؤمنوا بأن عيسى ـ عليه السلام ـ عبد الله ورسوله، وكلمته التى ألقاها إلى مريم، وروح منه، و لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله كما قال جل شأنه: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ١٧٢].

وتحسم السورة قضية العقيدة فتقرر أن الله واحد لا شريك له، ومن يجعله ثلاثة أجزاء فى شىء واحد فهو كافر ومشرك، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة النساء – الآيات ١٧١ – ١٧٢].

❑❑❑